النثر العربي القديم

المحاضرة الأولى : النثر العربي القديم

إن النثر في اللغة هو الشئ المبعثر (المتفرق)[1]، وأيضًا التشتت. فنقول تناثرت الأوراق أي تشتت وتفرقت في كل اتجاه.

أما في الاصطلاح هو الكلام الذي ليس فيه الوزن،ويعتمد على الحقائق،أي هو الكلام المقفى بالأسجاع، وهو الذي يقصد به صاحبه إلى التأثير في نفوس السامعين والذي يحتفل فيه من أجل ذلك بالصياغة وجمال الأداء. وهو أنواع منه ما يكون قصصًا وما يكون خطابة وما يكون مثلا وحكمة وإما يكون رسائل أدبية محبرة[2]

نشأة النثر العربي القديم:

أ-العصر الجاهلي: لقد تميز النثر في العصر القديم بقلته، وذلك بتناقل الناس بالطريقة الشفاهية مما أدى إلى ضياعه وعدم وصوله إلينا كاملاً. وليس بين أيدينا وثائق جاهلية صحيحة تدل على أن الجاهلين عرفوا الرسائل الأدبية وتداولوها ،وليس معنى ذلك أنهم لم يعرفوا الكتابة فقد عرفوها، غير أن صعوبة وسائلها جعلتهم لا يستخدمونها في الأغراض الأدبية الشعرية والنثرية، ومن ثم استخدموها فقط في الأغراض السياسية والتجارية[3] وكذلك وجدت صحيفة لقمان بها بعض أمثال وحكم مما كانوا ينسبونه إلى لقمان ووجود مثل هذه الصحيفة لا يدل على إنهم استخدموا الكتابة في التعبير عن وجدانهم نثرًا وشعرًا. وفقدان الأدلة المادية على وجود رسائل أدبية في العصر الجاهلي فمن المحقق أنه وجدت عندهم ألوانا مختلفة من القصص والأمثال والخطابة وسجع الكهان[4]

فالخطابة استخدمت في الدفاع عن القوم أو التحريض عن القتال و نصرة الضعيف والافتخار بالقبيلة. كما استخدموها في مناظراتهم ومفاخراتهم بالأحساب والأنساب والمآثر والمناقب وفك المنازعات والخصومات بينهم والدعوة إلى الحرب مرة وإلى السلم مرة أخرى حيث كانت تقام الخطب في الأسواق التجارية مثل خطبة قُس بن ساعدة في سوق عكاظ[5] الذي حظر فيها النبي صلى الله عليه وسلم.

---

[1]–ابن منظور لسان العرب ج14 ص422.

[2]– شوقي ضيف الفن ومذاهبه في النثر العربي. دار المعارف. القاهرة ط3، د.ت ص19.

[3]– نفسه الصفحة نفسها.

[4]– شوقي ضيف. العصر الجاهلي 399.

[5]– نفسه ص412.

ويرى الجاحظ أن خطبة قريش في الجاهلية يعني بها خطبة النساء.[1]

أما الأمثال والحكم فكان له الحظ الوافر وهو تراث الأمم والشعوب، فالعربي يميل إلى تزيين كلامه وتقويته بضرب الأمثال فصاروا يدونوها العرب في أواسط القرن الأول الهجري لكن فُقِدَ الكثير من الأمثال وهذا راجع إلى سبب تأخر التدوين وإذا انتقلنا إلى القرن الثاني وجدنا التأليف في الأمثال يكثر[2].

ووجدتْ أمثال وحكم مجهولة قائلها غالبًا تنبعث من أناس مجهولين من عامة القبائل.

والقصص فقد تناولت وقائع و أحداث الأمم السابقة مثل أخبار العرب البائدة ورام ذات العماد وعام الفيل ورواها القُصاص في أوقات سهرهم في الليل وحول مضارب حياتهم وفي مجالس أهل القرى والحضر. وقد دخل عليها التحريف والتبديل بسبب عدم وجود التدوين والكتابة، كما تناولوا مغامراتهم ورحلاتهم وبطولاتهم وانتصاراتهم في الحروب وكانوا يقصون كثيرًا عن ملوكهم من النادرة والغساسنة ومن سبقوهم أو عاصروهم ،وأيضا على أبطالهم وملوك الأمم من حولهم وشجعانهم وكهانهم وشعرائهم وسادتهم. وقصص الهوى والعشق مثل ما نجده في قصة "عنترة وعبلة "و "المرقش الأكبر وصاحبته أسماء بنت عوف"[3].

أيضا نجد سجع الكهان الذي هو أسلوب مسجع حافل بالأقسام والإبهام. والكهان عند العرب القدامى هم طائفة أدعت معرفة الغيبيات والمستقبل بما سخرلهم من الجن الذين يسترقون السمع من السماء، وهذا الضرب انتهى مع مجيء النبي صلى الله عليه وسلم وكان كثيرًا ما ينذرون بوقوع حروب وغزوةٍ غير منتظرة. كما كان كثيرًا ما يفسرون رُواهم وأحلامهم.

وكان أكثر كهان العرب حسب رأي الجاحظ هو سَلِمَة بن أبي حية. وفي النساء أشهرهن الشّعثاء. وكاهنة ذي الخلصَة، والكاهنة السعدية، والزرقاء بنت زهير والغيطلة القرشية وزبراء. فكانوا يقسمون ويؤمنون بالكواكب والنجوم والسحب والرياح والليل الدجي والصبح المنير والبحار وكثير من الطير في اعتقادهم هذه الأشياء تحكمها قوة وأرواحًا حقيقية ،مثل قول زبراء كاهنة بني رئام ويُروى أنها أنذرتهم بغارة عليهم فقالت: واللوح الخافق والليل الغاسق والصباح الشارق والنجم الطارق والمزن الوادق. إن شجر الوادي ليأدو خِتلا ويحرقا أنيابًا عُطلا وإن صخر الطّود لينذر شكلا لا تجدون عنه معلا"[4].

---

[1]–الجاحظ البيانو التبيين ج1، ص408.

[2]– شوقي ضيف. العصر الجاهلي. ص 404.

[3]– نفسه ص 400.

[4]–شوقي ضيف– العصر الجاهلي، ص421.

والرسالة أو الترسل في هذا العصر قد أخذت عدة أشكال بسبب عدم وجود التدوين والكتابة فكان الترسل إشاريًا وشكل آخر كان لغويًا إما شفويًا أو شعريًا. فكثرت الرسالة الشعرية وهذا ما وصل إلينا كان أوسع وأغزر لأن العصر الجاهلي كان الغالب فيه على العرب أنه عصر مشافهة وبداوة لذلك كانت رسائلهم شفوية لكن ليس بمثل الكم الهائل بالنسبة للرسائل الشعرية وذلك لسهولة تنقله وسيرورته فتقريبا كل المعلقات هي عبارة عن رسائل مثل معلقة النابغة الذبياني في اعتذاراته.

ب-العصر الإسلامي: لقد تطور النثر في هذا العصر بسبب نزول القرآن الكريم وظهور الحديث النبوي الشريف، فالقرآن تميز ببلاغة ألفاظه ووضوح معانيه وجاء بمواضيع لم تكن مطروقة إليها من قبل العرب في شعرهم أو نثرهم. "فدخل النثر العربي في طور جديد بظهور الإسلام بعد أن تعرضت الحياة الأدبية لانقلاب شامل وتطور بعيد المدى ولم يكن ثمة بدمن أن يتأثر الأدب بالحياة الجديدة وأن يكون صدى لأحداثها واتجاهاتها وكانت مظاهر التطور في النثر أوضح منها في الشعر. لأن الشعر فن تقليدي يترسم فيه الشاعر خطا سابقيه. ويلتزم بأصول محددة، ولذلك يكون أبطأ من النثر استجابة لدَواعي التطور[1].

أما أغراض النثر ومعانيه فإنها بلا شك تغيرت تغيرًا محسوسًا بظهور الإسلام. و"تلون النثر في هذا العصر بجميع ألوان الحياة الجديدة. فكان خطابة وكتابة ورسائل وعهودا وقصصًا ومناظرات وتوقيعات. وكان على كل حال أدبًا مطبوعًا، وامتاز النثر في هذا العهد بالإيجاز على سنة الطبيعة العربية الأصلية".[2]

أما الحديث النبوي الشريف تميز ببلاغة ألفاظه وروعة تعبيره وبعده عن التكلف والتصنع وقوة الإقناع والتأثير،وكان له الأثر الواسع في ظهور مجموعة من الفنون النثرية من خطب دينية وأمثال ضربها النبي صلى الله عليه وسلم ومجموعة من الوصايا والحكم مثل وصايا النبي صلى الله عليه وسلم. وما وجدنا من وصايا لقمان في الذكر الحكيم فتطورت الخطبة في هذا العصر بتطور موضوعاتها حيث تناولت الدعوة إلى الدين الجديد (الإسلام) بعد أن كانت سابقًا في الدعوة إلى العصبية القبلية. كما دعت الخطبة إلى التوحد والإيخاء والتعرف على أمور الدين والدنيا من معاملات وعبادات واستخدمت الرسائل في العصر الإسلامي وذلك رغبة النبي صلى الله عليه وسلم بدعوة ملوك

[1]– عمر الدقاق. مواكب الأدب العربي عبر العصور. دار طلاس. دمشق ط1، 1988 ص77.

[2]– حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي. منشورات ذوي القربى. ط3، 1427 ص 322.

العالم إلى الدين الإسلامي، فتميزت بالوضوح التام والإيجاز والبعد عن التكلف من اجل تحقيق الهدف، وتلت مجموعة من الرسائل من الخلفاء الراشدين إلى قادة الإمارات والامم.

وظهرت القصة القرآنية فأصبح هذا اللون موجودًا في الذكر الحكيم أي سرد قصص الأنبياء مصداقًا لقوله تعالى:" نحن نقص عليك أحسن القصص"[1] ،وأيضًا سرد ما حدث للنبي صلى الله عليه وسلم. والصحابة -رضوان الله عليهم- وهذا ما نجده في سرد سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وسير الخلفاء الراشدين.

دعا الرسول عليه السلام إلى الكتابة وتعلم الكتابة ونشر ما بين أصحابه وخاصة لما كثر اللحن والخطأ في تدوين الوحي والحديث النبوي الشريف، حيث أصبحت الكتابة تستعمل في الأمور الدنيوية من معاملات بين الناس مثل كتابة الدين في قوله تعالى:" يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه و ليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علّمه الله فليكتب وليملل الذي عليه الحق....."[2].

وكذلك كانت الكتابة تستعمل في العقود والعهود وهذا ما نجده في المعاهدة التي كتبها الرسول عليه السلام بينه وبين قريش عام الحديبية والتي نصت على وضع الحرب عن الناس عشر سنين ذمة لا تنكت "وإنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخله ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه"[3].

ج-العصر الأموي: ازدهر النثر في هذا العصر ازدهارًا واسعًا. وبداية التحزب بعد مقتل عثمان بن عفان -رضي الله عنه- ويرجع سبب ازدهار النثر هو ظهور الكتابة مع عبد الحميد الكاتب (749م/ 132ه) في القرن الثاني الهجري وظهور التدوين: إن الكتابة نمت في العصر الأموي نموًا واسعًا. فقد عرف العرب فكرة الكتاب وأنه صحف يجمع بعضها إلى بعض في موضوع من الموضوعات. وقد ألفوا كتبًا كثيرة".[4]

---

[1]– سورة الكهف الآية 3.

[2]– سورة البقرة الآية 282.

[3]– شوقي ضيف، العصر الأموي. ص131.

[4]– شوقي ضيف، الفن ومذاهبه. ص100.

ولعل من أهم الأسباب التي هيأت لرقى الكتابة الفنية في هذا العصر تعريب الدواوين في البلاد المختلفة وتعقد الحياة السياسية وكثرة الأحزاب والمذاهب".[1]

فأصبحت الخطابة متطورة ومتنوعة بعد ما كانت في الإسلام الخطبة الدينية مهيمنة وفي العصر الجاهلي العصبية قوامها. فأصبحت متعددة بتعدد الأحزاب السياسية التي ظهرت في هذا العصر وكثرة الفتن والاضطرابات وتوسع الفتوحات الإسلامية. وقد تناولت موضوعاتها السياسية الوعظ والإرشاد والحروب والمسائل الاجتماعية فكانت متأثرة بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف.

وجدت كذلك في هذا العصر التوقيعات التي هي عبارات موجزة غاية في البلاغة والعمق والروعة يكتبها أمير أو الوالي في أسفل الطلبات أو الحاجات أو القضايا والشكاوي التي ترفع إليه ويكون التوقيع في الأسفل يوجه به معاونيه إلى ما ينبغي فعله وتمتاز بالإيجاز والبلاغة والسمو بالمعنى وقوة الألفاظ ومن الممكن أن يكون التوقيع آية من القرآن أو مثلاً أو حكمة.[2]

فالرسائل كذلك كان لها نصيب وافر في هذا العصر حيث ازدهرت بكثرة نتيجة اتساع الدولة الإسلامية وحاجة الخلفاء إلى مراسلة ولا تهم، ونتيجة لامتزاج الثقافة الإسلامية بالثقافات الأخرى الأجنبية وظهور ديوان الرسائل وانقسمت إلى عامة وخاصة ،كما شاعت إلى جانب الرسائل السياسية الرسائل الوعظية وخاصة مع الخليفة عمر بن عبد العزيز و الحسن البصري.

كما أوصوا الخلفاء والولاة أولادهم حول الحكم والخلافة مثلما يوصي معاوية بن أبي سفيان إبنه يزيد. كما كانت موجهة الوصية إلى عامة الناس. إلا أن موضوعها تقريبا كان حول الأمور السياسية والحربية.

<u>د-العصر العباسي</u>: لقد خطا النثر في العصر العباسي خطوة واسعة فهو لم يتطور من حيث موضوعاته وأغراضه فقط بل إن معانيه قد اتسعت وأفكاره قد عمقت وذلك لاستقرار الأمور في الدولة والنضج العقلي وتشجيع الخلفاء والأمراء للكتاب وإغداق الأموال عليهم وظهور الترجمة والنقل وامتزاج الثقافات بسبب الفتوحات الإسلامية. حيث أصبح النثر متعدد الفروع فهناك النثر العلمي والنثر الفلسفي والنثر التاريخي والنثر الأدبي الخالص. وكان في بعض صوره امتدادا للقديم. وكان بعضها الآخر مبتكرًا لا عهد للعرب به[3].

---

[1]– عبد الحكيم بليع، النثر الفني وأثر الجاحظ فيه. مكتبة الأنجلوا المصرية، مصر، دط. دت. ص 122– 125.

[2]– شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، ص 489– 490.

[3]– شوقي ضيف، الفن وهذا ومذاهبه، في النثر العربي. ص125.

فقد ضعفت الخطابة السياسية في أواسط العصر العباسي وانتشرت الخطابة المحفلية بعدما استقرت الأحزاب السياسية والتعصب الحزبي ظهرت الخطبة الوعظية". وضعفت الخطابة الدينية على لسان الخلفاء والولاة[1] فدخلت الخطابة في هذا العصر لتحاكي ما هو موجود في واقعها بعدما تمدن العرب وأصبحت له ثقافات وعادات وتقاليد دخيلة عليه من الوافد الأجنبي .فتنوعت بشكل كبير وتنوعت ميادينها.

نمت الرسائل بنوعيها (الديوانية والإخوانية) في هذا العصر نموًا واسعًا. ومن ينظر نظرة عامة في موضوعات الرسائل الديوانية لهذا العصر يلاحظ أنها كانت تتناول تصريف أعمال الدولة وما يتصل بها من تولية الولاة وأخذ البيعة للخلفاء وولاة العهد. ومن الفتوح والجهاد ومواسم الحج والأعياد والآمان وأخبار الولايات وأحوالها في المطر والخصب والجذب وعهود الخلفاء لأبنائهم ووصاياهم الوزراء والحكام في تدبير السياسة والحكم، وأيضًا فإنها أخذت تتناول بعض الأغراض التي كان يتناولها الشعر من تهنئات وتعزيات وشكر[2] .وهي أقسام ومواضيع تخص الرسائل الإخوانية التي تصور عواطف الأفراد ومشاعرهم من رغبة ورهبة ومن مديح وهجاء ومن عتاب واعتذار واستعطاف ومن تهنئة واستمناح ورثاء أو تعزية.[3]

فالقصص والسرد ظهر بسبب ظهور الترجمة فترجمت العديد من القصص والحكايات والكتب من اللغة الفارسية والهندية والرومية...إلى اللغة العربية بسبب اختلاط العرب مع باقي الأمم الأجنبية مما أدى إلى ظهور كتب مترجمة مثل كتاب ألف ليلة وليلة مجهول المؤلف. وكتاب كليلة ودمنة لابن المقفع الذي ترجمه من الفارسية الهندية إلى العربية للفيلسوف الهندي بَيْدَبَا.

فظهر فن المقامات أيضًا في هذا العصر والتي هي عبارة عن حكايات قصيرة تشمل كل واحدةٍ منها على حادثة وبطل تكون مسجوعة ومتصنعة الألفاظ ولها حكم ومواعظ.

خصائص النثر العربي القديم:

-استعمال المحسنات منها السجع وخاصة في المقامة والخطب والرسالة والتوقيعات وسجع الكهان.

-التدعيم بالنص القرآني والحديث النبوي الشريف.

-الإقناع الهادف والتأثير في القارئ والمستمع.

---

[1]– شوقي ضيف العصر العباسي الأول، ص 452.

[2]– شوقي ضيف، العصر العباسي الأول. ص468.

[3]– نفسه، ص 491.

-الألفاظ متداولة.

-سهولة العبارة وجزالتها.

المحاضرة الثانية: **الخطابة في الأدب العربي القديم**

الخطابة في اللغة هي مراجعة الكلام. وهي الكلام المنثور المسجع[1] .أما في الاصطلاح هي فن مشافهة الجمهور وإقناعه واستمالته. فلا بد من مشافهة وإلا كانت كتابة أو شعرا مدونًا. ولا بد من جمهور يستمع وإلا كان الكلام حديثا أو وصية. ولا بد من الإقناع وذلك بأن يوضح الخطيب رأيه للسامعين ويؤيده بالبراهين. ليعتقدوه كما اعتقده ثم لا بد من الاستمالة والمراد بها أن يهيج الخطيب نفوس سامعيه أو يهدئها ويفيض على زمام عواطفهم يتصرف بها كيف يشاء. سارًا أو محزنا. مضحكًا أو مبكيا داعيًا إلى الثورة أو السكينة .إذا فأسس الخطابة :المشافهة، الجمهور، إقناع ،استمالة.[2]

الخطابة في العصر الجاهلي:

لقد ازدهرت وشاعت الخطابة في العصر الجاهلي بإلزام من واقع ذلك العصر الفروسي وطبيعة الصحراء، حيث كان الإنسان يكسب عيشه بالغزو والقتال. إضافة إلى ذلك كان العربي متعصبًا لقبيلته دون سائر القبائل مفتخرًا بها وبنفسه فكان الخطيب الجاهلي هو الذي يُولي جموع القبائل على أعدائها ويدعوا إلى الصلح ويمثل القبيلة في مجالس الاحتكام والشورى. كما أنه بالإضافة إلى ذلك يشير بالحرب أو ينهى عنها وهكذا فإن الخطابة في نشأتها الأولى خلال الجاهلية. كانت تصحب المقاتلين في غمار المعارك وتسهم في ملاحم البطولة إلى جانب السيف وتساعد في وضع أكاليل الغار على رؤوس الأبطال. كما تلحق الذل بالمنكسرين المخذولين[3]،ومن بين هاته الخطب نجد خطبة هانئ بن قبيصة الشيباني يوم ذي قار إذ قال:" يا معشر بكر ذلك مغذور خير من ناج فرور إن الحذر لا ينجي من القدر وإن الصبر من أسباب الظفر. المنية ولا الدنية. استقبال الموت خير من استدباره الطعن في ثغر النحور في الاعجاز والظهور يا آل بكر قاتلوا فما للمنية من بد"[4].

كما استخدمت الخطابة كذلك للنصح والإرشاد وإصلاح ذات البين وفي مناسباتهم الاجتماعية المختلفة والزواج أو الإصهار إلى الإشراف حيث كانوا يخطبون في المحافل العظام والوفادة على الملوك

---

[1]– ابن منظور الأنصاري الإفريقي. لسان العرب. م1. دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط1. 1424هـ 2003. ص 181.

[2]– أحمد محمد الحوفي. فن الخطابة. دار العلوم. القاهرة مصر ط4. د.ت. ص10.

[3]– ايليا الحاوي. فن الخطابة وتطوره عند العرب. دار الثقافة بيروت لبنان ط2. د.ت. ص31.

[4]– نفسه ص 32– 33.

والأمراء وكذلك في الأسواق والندوات متحدثين عن مفاخر قبائلهم ومحامدها[1] حيث الأسواق عبارة عن أمكنة في شتى أنحاء الجزيرة العربية وكانت تقام عادة في الأشهر الحُرم التي حُضر فيها القتال ،أي أشهر السنة الأولى ذي القعدة، ذي الحجة ومحرم. حيث كان العرب يقصدونها لشؤون تجارية وأدبية فيعالجون فيها مفاديات الأسرى والخصومات وينصرفون إلى المفاخرة والمنافرة في خطبهم بالحسب والنسب والكرم ،وأشهر هاته الأسواق على الإطلاق سوق عكاظ[2]. كما كانت في الجاهلية ندوات لكل كبيرة وصغيرة يجتمعون فيها للتشاور ويخطب فيها الخطب ومن أشهرها "دار الندوة "لرؤساء قريش حيث كانت لهاته الندوات والأسواق أثر فعال في شيوع الخطابة وازدهارها[3].بالإضافة إلى ذلك فهناك سبب آخر يعلل ظاهرة ازدهارها في العصر هو واقع الأدب الجاهلي وطبيعته الشفهية لذلك سهل للجاهلي أن يلقي الخطابة شفاهية وبأيسر أسلوب.

لقد كان للخطيب منزلة رفيعة في هذا العصر حيث أصبح سيدًا في قومه يأمر فيُطاع ويدعوا فيُجاب كما حفل هذا العصر بالكثير من الخطباء واشتهر منهم: عتبة بن أبي ربيعة وقيس بن الشماس. سعد بن الربيع. أبو عمار الطائي وهاني بن قبيصة الشيباني وزهير بن جُناب. وأشهر القبائل خطابة قبيلة تميم ومن خطبائها :ضمرة بن ضمرة وأكتم بن صيفي وعمرو ابن الأهتم المنقري وهاشم عبد مناف وأشهر الخطباء مأمون الحارثي.[4] أما أشهر خطباء الجاهلية على الإطلاق قس بن ساعدة الإيادي وهو أسقف نجران وخطيب العرب وحكيمها وحكمها. كان يؤمن بالله ويدعوا إليه بالحكمة والموعظة الحسنة. ويقال انه أول من خطب على شرف وإتكأ على سيف وقال في خطبه أما بعد. سمعه النبي - صلى الله عليه وسلم- في عكاظ فأثنى عليه ويروي أنه قال فيه" رحم الله قسًا إني لأرجوا يوم القيامة أن يبعث أمة وحده". عاش يعبد الله ويعظ الناس حتى توفي سنة600م وقد عمر طويلا.

قال في خطبته في سوق عكاظ:" أيها الناس اسمعوا وعوا. إنه من عاش مات ومن مات فات وكل ما هو آ ت آت. ليل داج ونهار ساج وسماء ذات أبراج ونجوم تزهر، وبحار تزخر وجبال مرساة وأرض مدحاة وأنهار مجراة. إن في السماء لخبرا. وإن في الأرض لعبرا ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون؟ أرضوا فأقاموا؟ أم تركوا فناموا؟

---

[1]– شوقي ضيف. الفن ومذاهبه في النثر العربي. دار المعارف. القاهرة مصر ط13. 2003 ص144

[2]– حنا الفاخوري. الجامع في تاريخ الأدب العربي. الأدب القديم. دار الجيل بيروت. لبنان ط. 1426هـ 2005م. ص51.

[3]– نفسه ص 116– 117.

[4]– محمد مرتاض– قراءة جديدة للنثر العربي القديم من العصر الجاهلي إلى نهاية العصر الأموي ديوان المطبوعات الجامعية بن عكنون الجزائر ط1. 2012 ص 27– 28.

يا معشر إياد أين الآباء والأجداد. وأين الفراعنة الشداد؟ ألم يكونوا أكثر منكم مالا وأطول أجالا؟ طحنهم الدهر بكلكله. ومزقهم بتطاوله"[1].

فقد تميزت الخطابة في هذا العصر بمجموعة من الخصائص أهمها: الإيجاز وكثرة السجع أحيانا امتلاؤها بالأمثال والحكم. سيطرة العاطفة عليها. دعوتها إلى سمو الأخلاق والتبصر وتحكيم العقل سهولة ألفاظها وقصر جملها، ندرة الصور البيانية ووفرة المحسنات البديعية عدم استشهاد بالشعر، اشتمالها على إشارات مثيرة للعصبية القبلية أو الحمية الجاهلية أحيانًا.[2]

لخطابة في صدر الإسلام :

لقد تطورت وانتشرت الخطابة في هذا العصر بكثرة بمجيء النبي- صلى الله عليه وسلم-. الذي كان يعرض على قومه من قريش كل من يلقاه في الأسواق آيات القرآن الكريم. وهو يخطب في الناس داعيًا إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة والحسنة. محاولاً بكل طاقته ان يوقظ ضميرهم بما يصور لهم في قوة الكائن الأعلى مدبرًا الكون ومنظمه ونبذ المنافرات الجاهلية القائمة على التكاثر بالآباء والأنساب.

فاتسمت الخطابة في هذا العصر بعد هجرة الرسول (ص) إلى المدينة. حيث أخذ يشرع للمسلمين ويرسم لهم من حدود دولتهم ونظم حياتهم التي ينبغي أن تقوم على الإخاء والمساواة والتعاون في سبيل الحق والخير وهو في تضاعيف ذلك يأخذهم بآداب رفيعة من السلوك السامي، مبينًا لهم معاني الإسلام الروحية التي تقوم على معرفة الله الواحد الأحد والصلة به. فتناولت خطبه المشاكل الدنيوية كمشكلة الرقيق ومشكلة توزيع الثروة ومشكلة العلاقات بين الرجل والمرأة وعند ذلك من مشاكل حُلَّت بما يحقق سعادة الجنس البشري وهناءته.[3]

وعلى هذا كانت خطابة الرسول عليه السلام متممة للذكر الحكيم ومن ثم كانت فرضًا مكتوبًا في صلاة الجُمعَ ثم مواسم الحج والأعياد.

ونمضي في عصر الخلفاء الراشدين. فتكثر بجانب خطب الجمع والأعياد والمواقف التي تجلت فيها براعة هؤلاء الخلفاء كموقف أبي بكر حين انتقل الرسول- صلى الله عليه وسلم- إلى الرفيق الأعلى وموقفه يوم السقيفة. وكذلك موقفه حيث ارتد كثير من العرب وامتنعوا على أداء الزكاة وكم من

---

[1]-أحمد حسن الزيات تاريخ الأدب العربي. دار المعرفة بيروت لبنان ط1، 1428- 2007 ص 19- 20.

[2]- محمد مرتاض مرجع سابق ص32.

[3]- شوقي ضيف- العصر الإسلامي. ص109.

خطيب وقف حينذاك يحض قومه على الثورة أو يحثهم على الطاعة، ولا بد أن نلاحظ أن انتشار الإسلام في الجزيرة أعدَّ منذ أول الأمر إلى أن تتكاثر خطب الجمع والأعياد على المسلمين في كل مكان يحدّونه من الجزيرة.

ثم تكون الفتوح، ويخطب أبو بكر في الجيوش الغازية يحض على الجهاد ونشر الدين الحنيف في أطباق الأرض. وترتفع أصوات القادة بالخطابة في كل قطر حاثين الجنود على الصبر في القتال حتى الاستشهاد طالبين لما عند الله من الثواب. ولا نغلوا إذا قلنا إن بلدًا من بلدان الفرس في العراق وإيران وبلدان الروم في الشام ومصر لم يفتح إلا بعد أن فتحته خطبة أحد هؤلاء القادة كخطبة المغيرة بن شعبة في القادسية وخالد بن الوليد في اليرموك، وعتبة بن غزوان في فتح الأبلّة.

ولم تقف الخطابة الدينية في هذا العصر عند الجزيرة، فقد أخذت تحل مع المسلمين في كل بلد فتحوها. وكان هذا بدون شك عاملاً من عوامل نموها إذ تكاثر من يرد دونها ومن يحسنون حَوْكَهَا وصياغتها مستلهمين القرآن الكريم وخطابة الرسول فيما يعظون الناس به من مواعظ حسنة.

ويتولى عمر بن الخطاب الخلافة فيكثر في الخطابة لا في الجمع والأعياد ومواسم الحج فحسب بل مع كل حادث ومع كل خير يأتيه بفتح. وقد سار على هدى أبي بكر في استشارة أصحابه في كل مهم وكل ما يجد من تشريع. وخاصة في معاملة الأمم المفتوحة. وكان هذا بدوره عاملا من عوامل نمو الخطابة في العصر ،وفي عهد علي تكثر الخطب بين أنصار علي وخصومه فهؤلاء يدعون إلى طاعته وأولئك يدعون إلى منابذته.

وانتدب علي أهل العراق لقتال معاوية وأهل الشام. فخرجوا معه إلى صَفّين على حدود الفرات حيث التقوا بمعاوية وجنوده. وفي هذه الأثناء تتكاثر الخطب بكثرة مفرطة وخاصة في صفوف على وأصحابه. وكان هو نفسه خطيبا مفَّوهًا. وكان بجيشه غير خطيب من أمثال عمار بن ياسر وقيس بن سعد بن عبادة.[1]

ومن خصائصها الاقتباس من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف. البعد عن التكلف. التخلص من الصنعة اللفظية، بدأها بالحمد والثناء والشكر لله والصلاة على النبي -صلى الله عليه وسلم-. نقاء الألفاظ واختياره. وحدة الموضوع. جزالة اللفظ ورصانته. إيراد الحجج والبراهين. الإقناع والتأثير في

[1]– شوقي ضيف. العصر الإسلامي. ص 110.

المستمعين واستعمال أساليب التوكيد والاستفهام. الأمر والنهي والدعاء. استعمال السجع في جل الخطب.

لقد نمت هذه الخطابة في هذا العصر نموًا واسعًا، بتأثير الإسلام من جهة وتكاثر الأحداث وتتابعها من جهة ثانية. وقد دارت معانيها في القرآن الكريم وخطابة الرسول -صلى الله عليه وسلم- وأحاديثه. وهي معانٍ جديدة لم تكن للعربية بها عهد. معاني هذا الدين الحنيف الذي بعث لغتنا ونثرها بعثا جديدًا.

العصر الأموي:

ازدهت الخطابة في العصر الأموي ازدهارًا. ولعل العرب لم يعرفوه في أي عصر من عصورهم القديمة، فقد كانوا أصحاب مواهب بيانية. عملت بواعث كثيرة على أن تتوهج هذه المواهب في الخطابة حينئذٍ. بسبب ما نشأ من خصومات سياسية عنيفة. فكان هناك خطباء الخوارج وخطباء الشيعة وخطباء الزبيريين والثوار المختلفين وخطباء الأمويين وكل منهم يحاول استمالة القلوب إليه بالتفنن في بيانه.[1]

نمت الخطابة السياسية في هذا العصر ونهضت نهوضًا عظيمًا إذ دارت على كل لسان مؤيد أو معارض للدولة. ولعل حزبا لم يكثر خطباؤه كما كثروا في الخوارج إذ كانوا شديدي الحماسة لعقيدتهم ولم يدعوا لها سرًا كما دعا الشيعة في أكثر الأمر بل دعوا لها جهارًا شاهرين سيوفهم في وجوه بني أمية وولاتهم على أنه ينبغي أن نلاحظ أن جمهور خطبهم سقط من يد الزمن ولم يصلنا. لأن الناس من غير بيئتهم كانوا يتحرجون من روايتها. إذ كانوا يرون فيهم ثوارًا خارجين على الجماعة. ويظهر بها كتب الأدب والتاريخ[2] .وعلى نحو ما كان للخوارج خطباؤهم كان للشيعة خطباء كثيرون وكانوا على شاكلة خطباء الخوارج يندرون دائمًا ببني أمية. وأنهم اغتصبوا الخلافة. وساروا فيها سيرة جائرة عطَّلوا فيها أحكام الشريعة و ما رسمه القرآن ورسوله الكريم. وكانوا لا يزالون يرددون أن هم أصحاب الخلافة الشرعيون بغى عليهم بنو أمية إذ انتزعوا منهم ميراثهم عن الرسول الكريم وتدور هذه الأفكار دائما في خِطاباتهم وخطابة أئمتهم على نحو ما نجد عند الحسين بن الامام علي –رضي الله عنه- حين اقترب من الكوفة واجتمع الناس من حوله ولقيته مقدمات الجيش الذي أرسله له عبيد الله بن زياد فقد

[1]– شوقي ضيف، العصر الإسلامي، ص 383.

[2]– الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، 243.

انصرف إلى القوم بوجهه يقول في كلمة له:" أما بعد أيها الناس بأنكم إن تتقوا وتعرفوا الحق لأهله يكنْ أرْضَ الله ونحن أهل البيت أولى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدّعين ما ليس لهم والسائرين فيكم بالجور والعدوان"[1]ومن أبرز خطبائهم سليمان بن صُرَد وعبيد الله بن عبد الله المُرِّي وزيد بن علي وابنه يحي.

ولم يعش حزب الزبيريين طويلا،ولذلك لم يتكاثر خطباؤه حيث ظل نحو ثماني سنوات وكان هذا الحزب يدعوا إلى عودة الخلافة إلى الحجاز وأن يتولاها أحد أبناء كبار الصحابة من قريش لا هؤلاء الأمويين الذين حولوا الخلافة إلى دمشق وأخذوا يحكمون الناس مستندين إلى القبائل اليمنية الشامية وبذلك ضاع الحكم من قريش.

وعبد الله بن الزبير خطيب هذا الحزب وكان مفوهًا بليغًا يعرف كيف يخلب الألباب بكلامه. ويستولى على النفوس لحلاوة منطقه، وهو في خطابته يتناول الأمويين بالقدح والتجريح. ومن خطبائهم نجد أخوه مصعب بن الزبير.

وكان يقف في الصف المقابل من هؤلاء الخطباء المعارضين (شيعة- خوارج- زبيريين) خطباء بني أمية يتقدمهم الخلفاء ثم الولاة والقادة. وممن أشتهر من الخلفاء بإحكام الصنعة في الخطابة مع جهارة المنطق وطلاوة الكلم معاوية وعبد الملك وعمر بن عبد العزيز. فكانت خطبة هذا الأخير خطبه مواعظ خالصة يتحدث فيها عما ينتظم الإنسان من موت وانتقاله إلى دار الخلود ومحاسبته على ما قدَّمت يداه[2]

ومن أبرز خطبائها في الأمور السياسية نجد زياد بن أبيه الذي كان خطيبًا لا يبارى في جودة خطابته. يعرف يصوغ كلمه صوغًا نهش له الأسماع وتصغى له القلوب والأفئدة وقد نوه بخطابته كثير من معاصريه على شاكلة قول الشعَّبي:" ما سمعت متكلما على منبر قط تكلم فأحسن إلا أحببت أن يسكت خوفًا أن يُسيء إلا زيادًا فإنه كلما أكثر كان أجود كلامًا" وخطبه مثل خطب الحجاج تدور في موضوعين هي السياسة والمواعظ الدينية. وقد بقيت من خطبة الأولى شظايا وفقر وخطبة طويلة هي أروع خطبة سياسية خلَّفها هذا العصر. وهي الملقبة بالبتراء وسميت بذبك لأنها لم تبتدئ بالتحميد والتمجيد[3]

---

[1]- شوقي ضيف- العصر الإسلامي. ص414- 415.

[2]- نفسه ص 419.

[3]- الجاحظ، البيان والتبيين ج3، ص 62.

ونمت بجانب الخطابة السياسية الخطابة المحفلية بين أيدى الخلفاء والولاة. إذا أخذوا أصحابها يَعْنَوْنَ بتعبير كلامهم وخير من يمثلهم الأحنف بن قيس واحتدمت خطابة الوعظ والقصص الديني احترامًا وما فتئ أصحابها يطلبون كل وسيلة بيانية كي يؤثروا في الناس حتى انتظم لهم أسلوب بديع ثبتوه تثبيتا قويًا. وهو أسلوب نهض على حلي من الازدواج والخيالات والمقابلات ودقائق المعاني وقد مضوا يعلمون الشباب في البصرة والكوفة كيف يبرعون في الخطابة والمناظرة وبذلك أعدُّوا لنشأة علم البلاغة العربية وخير من يمثلهم الحسن البصري.[1]

الخطابة في العصر العباسي:

نشطت الخطابة السياسية في مطالع هذا العصر، إذ اتخذتها الثورة العباسية أداتها في بيان حق العباسيين في الحكم، وكانوا يحسون منذ أول الأمر أن أبناء عمهم العلويين يطغون عليهم و استئثارهم بالخلافة من دونهم. فمضوا يؤكدون في خطابتهم أنهم أصحاب هذا الحق حيث اشتهر منهم أبي العباس السفاح وأبو جعفر المنصور[2]. وبعد إضعاف العباسيين للأحزاب السياسية ضعفت الخطابة السياسية لكنها سرعان ما عادت بسبب فتنة الأمين والمأمون،ولكن لم تعد لها قوتها القديمة في العصر الأموي وما كانت تمتاز به من روعة تجذب الناس إلى الاستمتاع بكلام الخطيب والفتنة بأساليبه وعلى نحو ما ضعفت الخطابة السياسية ضعفت الخطابة المحْفلية لأن وفود العرب لم تعد تغد على قصور الخلفاء، فاقتصرت الخطابة المحفلية على بعض المناسبات ،أما الخطابة الدينية وما اتصل بها من وعظ فقد حافظت على ازدهارها في هذا العصر وعلى نحو ما كان الخلفاء والولاة يشاركون فيها العصر بنبي أمية كانوا يشاركون فيها لهذا العصر، إذ يقول الرشيد في خطبته: "حصّنوا إيمانكم بالأمانة ودينكم بالورع وصلاتكم بالزكاة، فقد جاء في الخير أن النبي صلى الله عليه وسلم. قال:" لا إيمان لمن لا أمانة له و لادين لمن لا عهد له ولا صلاة لمن لا زكاة له". إنكم سفْرٌ مجتازون وأنتم عن قريب تُنقلون من دار فناء إلى دار بقاء فسارعوا إلى المغفرة بالتوبة وإلى الرحمة بالتقوى وإلى الهدى بالإناجة فإنه الله تعالى ذكره أوجب رحمته للمتقين ومغفرته للتائبين وهداه للمنيبين"[3]. لكن الخطابة الدينية كذلك وإن أخذت تضعف على ألسنة الخلفاء فإنها نشطت نشاطا عظيما في المساجد أين كانت تعقد حلقات

---

[1]–شوقي ضيف– العصر الإسلامي ص484.

[2]– د. شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي3، العصر العباسي الأول، دار المعارف، ط6، القاهرة، مصر، 1966، ص ص 448، 449.

[3]– المرجع السابق، 450– 451.

للوعاظ والقصاص. وكان الناس يتحلقون من حولهم فيما يشبه احتفالات الأعياد، وكان منهم الرسميون الذين تعينهم الدولة للخطابة أيام الجمع ومنهم غير الرسميين، وهم الجمهور الأكبر، وكانوا يستمدون وعظهم وقصصهم من القرآن الكريم والحديث الشريف وقصص الأنبياء والمرسلين وكانوا يعنون بعون الضعفاء والمساكين واليتامى والجهاد وحرب الأعداء، وكثير منهم كان يذهب مع الجيوش المجاهدة للوعظ في الحرب وبث روح الحماسة الدينية في نفوس المجاهدين وكان أبرزهم أبي العباس الطبري ويحي بن معاذ وأبو حمزة الصوفي.[1]

وبمرور الوقت استعجم المسلمون، وملك العرب ألسنة الوعاظ فلم يستطيعوا إنشاء الخطب في الموضوعات المختلفة. عمدوا إلى استظهار خطب أسلافهم كابن نباته المصري وأخذوا يرددونها فوق المنابر، ودرجوا على هاته الحال المخزية تلك القرون الطويلة حتي أدركتها عوامل النهضة[2]، ولأن العصر العباسي عصر انفتاح على الثقافات الأجنبية كاليونانية والفارسية والهندية وكل معارف الشعوب التي أظلتها الدولة العباسية[3]، فإن العرب لم يكتفوا بما توفر عندهم من تجارب بل ترجموا ما كان عند غيرهم من إعداد الخطابة وفنونها إلى العربية ومن الكتب المهمة التي ترجمت في هذا العصر كتاب الخطابة لأرسطو الذي ترجمه إسحاق بن حنيف وعلق عليه الفارابي وكان لظهور الفرق الكلامية وخصوصا المعتزلة أكبر الأثر في ازدياد رونق الخطابة.

بالإضافة للخطابة نجد الموعظة في هذا العصر قد انتشرت انتشارًا واسعًا بسبب حاجة الخلفاء للوعاظ فكانوا يشاركونهم في مجالسهم لوعظهم وأحيانًا كانوا يستقدمونهم فيعظونهم حتى يبكوهم مما يوقعون في نفوسهم من خشية عقاب الله وبما يصورون لهم من زفير جهنم وهم في تضاعيف ذلك يزجرونهم عن ظلم الرعية واقتراف المعاصي والسيئات ومن كبارهم الذين عرفوا بمقاماتهم المحمودة بين أيدي الخلفاء ثلاثة هم عمرو بن عبيد ألمعتزلي الزاهد المشهور واعظ المنصور وصالح بن عبد الجليل واعظ المهدي وابن السماك واعظ الرشيد.[4]

ومن خصائص الخطبة في هذا العصر جزالة الألفاظ والاستشهاد بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف. عدم الالتزام بالسجع، الإيجاز إلى ما لا تدعوا إليه الحاجة

---

[1]– د. شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الثاني، دار المعارف، ط2، القاهرة، مصر، 1975، 526، 527.

[2]– أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي، دار المعرفة بيروت، لبنان، ط11، 1428هـ– 2007م، ص 158.

[3]– د. شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، المرجع نفسه، ص 448.

[4]– د. شوقي ضيف، العصر العباسي الأوّل، .**453**

عصر الأندلس:

لم تصل الخطابة في الأندلس كما ونوعا إلى مستوى الذي وصلت إليه في المشرق ففي عصر الولاة استعمل هذا الضرب من النثر بكثرة وذلك بدواع كثيرة أهمها: الحث عن الجهاد والقتال ضد توسيع رقعة الدولة الأموية وتثبيت أقدامها في ذلك المجتمع المتنبت حديثا ،وفيما أخذ مجال الخطابة يضيق فانحصرت مهمته في المجالس الخاصة وفي المناسبات وغالبا ما كانت الخطب تقال بطريقة الارتجال وهي طريقة استحواها أهل الأندلس فكانوا يتسابقون من خلال القطع الأدبية التي كانوا يلقونها في مجالسهم ولاسيما تلك التي تتعلق بالحكام والوزراء ليحض كل خطيب منهم بإعجاب الحاضرين وليكون تأثيره فيهم كبيرًا .وهاته خطبة أمير الأندلس عبد الرحمان الداخل في قومه يوم حربه مع يوسف الفهري آخر ولاة الأندلس يحثهم فيها على الصبر والجهاد يكتسبوا المعركة "هذا اليوم أسس ما يبنى عليه إما ذل الدهر وإما عز الدهر فأصبروا ساعة فيها لا تشتهون تربحوا بها بقية أعماركم فيما تشتهون".

ومن أشهر خطبائها نجد لسان الدين الخطيب وطارق بن زياد في خطبته عن الحث على الجهاد صاحب مقولة:" أين المفر البحر من ورائكم والعدو من أمامكم".

أما من حيث خصائص الخطبة في هذا العصر سهولة العبارة ووضوح المعاني والبعد عن التكلف والسجع- تناولها المواضيع السياسية بكثرة وكذلك نجد الإيجاز والبلاغة في القول.

المحاضرة الثالثة : **الأمثال والحكم في الأدب العربي القديم**

الأمثال: هي العبارة الفنية السائرة الموجزة التي تُصاغُ لتصوير موقع أو موقف أو حادثة ،وللمثل مورد ومضرب.

أما المورد فهو القصة أو الحادثة التي أطلق فيها لأول مرّة.

أما المضرب فهو الحال الذي نستخدمه فيه لمشابهته لقصة المثل.

الحكمة: هي قول موجز موافق للحق، يصلح قانونا من قوانين الحياة وهو ثمرة الحُنْكَة ونتيجة الخبرة، وخلاصة التجربة.

نشأة وتطور الأمثال والحكم:

من المعلوم لدى الجميع أن نشأة الأمثال العربية نشأت في العصر الجاهلي وتطورت ولا يمكن تحديدها بالسنة لأن المعلومات عنها وجدت مكتوبة كالخطابة، بما أن الكتابة ما كانت رائجة في ذلك العصر كيومنا هذا وعدم وجود التدوين،فتناقلها الأجيال شفاهية إلى أن ظهرت الكتابة ومن ثَّم سارع العرب إلى تدوينها منذ أواسط القرن الأول للهجرة ،إذ ألف فيها "صُحَار العَبْدي" في أيام معاوية بن أبي سفيان (41- 360) كتابًا ،كما ألف فيها "عُبَيْد بن شَرِيَّةَ" معاصره كتابًا آخر.[1] ويقول صاحب الفهرست إنه رآه في نحو خمسين ورقة. وبعد ذلك في القرن الثاني الهجري كثر تأليف الأمثال بكثرة. وأُلفَ فيه كتاب (أمثال العرب) للمفضل الضبي. وازدهرت الكتابة والتأليف في القرن الثالث الهجري منه كتاب (فصل المقال في شرح كتاب الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلام) قام بشرحه أبو عبيد البكري. وما تزال المؤلفات في الأمثال تتوالى حتى يؤلف (جمع الأمثال) لأبو هلال العسكري ويخلفه الميداني في كتابه (مَجْمَعُ الأمثال) وهو يقول في مقدمته إنه رجع فيه إلى ما يربو على خمسين كتابا.[2]

أما عن تاريخ الأمثال أن طائفة كبيرة مما روته الكتب السالفة يتحتم أن تكون جاهلية، وخاصة ما رواه "عُبيد ابن شَرِيَّة " إذ لم يحاولوا من جاءوا بعده ان يفردوا الأمثال الجاهلية والإسلامية. وبذلك أصبح من الصعب تمييز جاهليها من إسلاميها في كثير من الأحيان. ومع ذلك يورد أصحاب هذه الكتب مع ما يرونه من الأمثال إشارات تدل على جاهليتها وقدمها وهي تتخذ طريقين عندهم: فالطريق الأول أن يسوقوا مع المثل قصة جاهلية تفسره. مثل "جزاء سنمَار". وأما الطريق الثاني فهو أن ينسبوا

[1]– فؤاد عبد المنعم أحمد، دار الوطن للنشر الرياض، السعودية ط1، 1420هـ/ 1999م ص 21.

[2]– شوقي ضيف– العصر الجاهلي ص404.

المثل إلى الجاهليين. فحينئذ يتعين زمنه وتاريخهُ. وهناك كثيرون اشتهروا فيهم بالحكمة والأمثال السائرة، ومن يُغْرق في القدَم مثل: " لقمان عاد" من قبيلة يمنية التي كانت تنزل في الأحقاف والتي بَادَتْ ولم تبقى منها باقية في الجاهلية وقد ظل اسم "لقمان" يدور علي ألسنة شعرائهم. وجمع أمثاله "هِلَر" في كتاب سماه "أمثال لقمان".[1]

وقد أشتهر في الجاهلية بينهم كثيرون بهذا اللون من الأمثال وما يتصل بها من حكم، ويقول الجاحظ :"ومن الخطباء البلغاء والحكام الرؤساء أكثم بن صَيْفِي[2] وربيعة بن حُذار وهرم بن قطبة وعامر بن الظَّرب العدواني ولبيدين ربيعة" ومن أمثال أكثم الصيفي نجد "رب عجلة تهب ريثا". "وأسوأ الآداب سرعة العقاب". "ربَّ كلام ليس فيه إكتتام". "إذا بالغت في النصيحة هجمت بك على الفضيحة". "لا تطمع في كل ما تسمع".[3]

أما الحكمة استمد الفرد العربي الجاهلي الحكمة من الحياة اليومية ومن التفكير الفطري، لأن حياتهم تمتاز برجاحة العقل وعمق النظر. وطبعت الحياة القبلية بطابعها على الحكمة الجاهلية. فنجد العشيرة تشترك في الجزيرة والواجب على العربي الوقوف بالصلابة بجانب أخيه العربي، والدعوة إلى الشجاعة وحفظ العرض والجود والتمسك بأهداف الصدق.

ولا شك أن العصر الجاهلي كان أكثر العصور الأدبية إنتاجا للأمثال و الحكم ،ويتجلى ذلك واضحا بالرجوع إلى كتب الأمثال و الحكم الكثيرة ،خاصة المؤلفة في العصر العباسي.

كما أشتهر هذا العصر بأسماء لأعلام ضرب بهم المثل كل حسبما عرف به ،وكمثال على ذلك: (أبلغ من قس).(أحكم من لقمان).(أوفى من السموأل) .(أجود من حاتم) .(أعدى من الشنفرى). (رجع بخفي حنين).(أطمع من أشعب).(مواعيد عرقوب).

وفي صدر الإسلام أتى القرآن الكريم هدى ورحمة للعالمين ،فكان جامعًا كل المبادئ والقيم السامية وفتح الإسلام الحنيف الآفاق لنمو الحكمة الجاهلية الداعية إلى المودة والتآلف والكرم والشجاعة. والقرآن يشيد بالحكمة فقوله تعالى" ولقد آتينا لقمان الحكمة أن أشكر الله. فإنما يشكر

---

[1]– شوقي ضيف، العصر الجاهلي. ص404– 405.

[2]– الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص 365.

[3]– شوقي ضيف، العصر الجاهلي، ص 407.

لنفسه ومن كفر فإن الله غني حميد".[1]وكذلك في قوله(يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولوا الألباب)سورة البقرة:الآية 269

ولقد جاء في أمثال القرآن الكريم واضحة أغلبها فيها المشبه صراحة إلى جانب المشبه به ،قال تعالى:(ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء)سورة إبراهيم:الآية24.وقوله أيضا:(مثل الذي اتخذوا من الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن اوهن البيوت لبيت العنكبوت ولو كانوا يعلمون)سورة العنكبوت:الآية41

والرسول -صلى الله عليه وسلم- يدعو إلى تعلم الحكمة من أفواه الناس لأنها تمرة التجربة الإنسانية المتجددة المتغيرة فقال: "الحكمة ضالة المؤمن"[2]."إن من الشعر حكمة ،وإن من البيان سحرا"،ومن حكمه وأمثاله: "المؤمن مرآة المؤمن"،لأخير في صحبة من لا يرى لك مثل ما ترى"،"ليلدغ المؤمن من جحر مرتين"،"دع ما يريبك إلى ما لا يريبك"،"من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه"

ومن المصادر الأخرى للمثل والحكمة في صدر الإسلام،ما جاء على لسان الخلفاء والصحابة والعلماء والصالحين ومنها:

أبو بكر الصديق-رضي الله عنه-إن البلاء موكل بالمنطق،و قول عمر بن الخطاب- رضي الله عنه-" خذو الحكمة من أفواه المجانين" ،وكذلك الإمام علي- كرم الله وجهه- الذي كان يتمتع بالحكمة ومن حكمه نجد: "القناعة مال لا يُنْفَذُ". "العفاف زينة الفقر والشكر زينة الغنى". " الصبر صبران. صبر على ما تكره وصبر على ما تحبه". "كل وعاء يضيقُ بما جُعِل فيه إلاّ وعاء العلم فإنه يتسع". "لا غنى كالعقل ولا فقر كالجهل ولا ميراث كالأدب ولا ظهير كالمشاورة".

ويظل المفهوم الإسلامي للحكمة سائدًا في العصر الأموي الذي حاول العرب فيه الاحتفاظ بعروبتهم والابقاء على تراثهم الحضاري. فالحكمة عندهم تظل مرتبطة بالعلم لكنها أخذت تتطلع إلى الفلسفة اليونانية بتحفظ. فالحكمة في العصر الأموي وثيقة الصلة بالعلم. ولكن دائرة العلم تتسع هنا نظرًا لاتجاه الأمويين إلى الترجمة عن اليونانية فتتسع تبعًا لدائرة الحكمة.غير أنه لم يبتعد كثيرا عن الأمثال الجاهلية والإسلامية بصبغة دينية،ولعله كان لحكماء هذا العصر دور إيجاد حكم وأمثال مثل معاوية

بن سفيان ،وعمر بن عبد العزيز ،وإبراهيم بن يزيد النخعي والحسن البصري[3].

---

[1]– سورة لقمان الآية 12.

[2]– ابن ماجة. كتاب الزهر رباب الحكمة ج9 416 (1395/ 2).

[3]الميداني .مجمع الأمثال ج 1 ص12-13

ومن أمثال وحكم عمر عبد العزيز :(آفة الرئاسة الفخر).(لاينفع القلب إلا ما خرج من القلب).(من عد كلامه من عمله قل كلامه).(أصلحوا سرائركم تصلح لكم علانيتكم).(أصلحوا آخرتكم تصلح لكم دنياكم).

كما نجد الحسن البصري في حكمته الوعظية: (من عرف ربه أحبه،ومن عرف الدنيا زهد فيها).(عظ الناس بفعلك ولا تعظهم بقولك).(إن النفس أمارة بالسوء فاعصها في الطاعة ،فاعصها أنت بالمعصية).

وأيضا نجد معاوية بن أبي سفيان له أمثال وحكم مثل:(الغريب لمن لا أدب له).

وفي العصر العباسي ازدهرت حركة النقل والترجمة عن الثقافات الهندية والفارسية واليونانية، وقد نشط العرب نشاطًا ظاهرًا بعد احتكاكهم بغيرهم من الأمم ذات الحضارات الراسخة في نقل تراث الحضارات القديمة للاستفادة منها.

وقد شهد العصر العباسي انتشارا للمعارف والعلوم والتأليف وانعكست على الحياة الأدبية وفنون النثر خاصة،فكان للمدينة والحياة الجديدة أثر بالغ في الحكمة المبنية على الخبرة والمعرفة،ولقد اصطبغت بصبغة المدينة الجديدة،وانطلقت قوية المبنى في قسم كبير منها،وقد كانت ثمرة الخبرة والمعرفة،ثمرة العقل الاختياري،والعقل التفكيري،ولهذا كانت الحكمة العباسية شديدة التأثير و شديدة الانطلاق و الانتشار ولهذا كان لها قيمة إنسانية حقة،وكانت الكنز الذي اغترف منه الناس على ممر العصور[1]

وغدا إنتاج الأمثال والحكم في العصر العباسي أمرا ميسورا عند العرب والفرس والمولدين،وجمعها وتدوينها متاحا لمن اجتهد فيها،وقد ألفوا فيها الكتب،ومن أشهرها "مجمع الأمثال" للميداني في نحو خمسين كتابا مرتب على حروف المعجم ،بعد أضاف إليه أمثال المولدين،و"المستقصي في الأمثال" للزمخشري.

ومن أمثال هذا العصر:(عند الامتحان يكرم المرء أو يهان).(ماأقبح الخضوع عند الحاجة،والتكبر عند الاستغناء).(معالجة الموجود خير من انتظار المفقود).(من عَير عُير).(الخنفساء في عين أمها راشية).(الجنون فنون).(عذره أشد من ذنبه).[2]

الأمثال والحكم في العصر الأندلسي:

[1] حنا الفاخوري،الحكم والأمثال.دار المعارف.مصر.ط.4.1980،ص63

[2] الثعالبي،التمثيل والمحاضرة.تحقيق :عبد الفتاح محمد الحلو،الدار العربية للكتاب ط،2.1981"ص.45.44

لقد تأثرت الأمثال والحكمة في العصر الأندلسي بما كان يجلو في الأدب العباسي "فقد كان صدى لحكمة بني العباس كما كان الأمر في أدب الأندلسي،وذلك أن عهد الانحطاط في الأدب في عهد انهيار فكري وفني،فكان الأديب فيه شديد التلفت إلى من سبقه شديد التقليد والزخرفة اللفظية والبديعية،شديد التلهي بالقشور والظواهر الفنية،وكذلك كان الأديب الأندلسي صادقا في التعمق في التحليل،والانفلات في أجواء الفكر،صادقا عن التغلغل في الأغوار،بهمه أن يقلد الأديب العباسي ،وإن يلوك أفكاره،ويردد بعض حكمه من غير ما ابتكار ولا تجديد"[1]

ويرجع هذا الترابط الوثيق بين الأدبين العباسي والأندلسي خاصة الأمثال والحكم إلى طبيعة المرحلة التاريخية من جهة،وإلى كتب الأمثال والحكم العباسية التي دخلت الأندلس من جهة أخرى،وغدت مرجعا في مجال اختصاصها ،وهي الكتب التي رصدها ابن خير الاشبيلي في فهرسته والتي تداولت في الأندلس وتم دراستها والاستناد عليها ،ومنها :كتاب "أمثال لأبي زيد سعيد بن أوس الأنصاري"،وكتاب "الأمثال لعبد الملك بن قريب الأصمعي" ،وكتاب" الأزهر لابن الأنبا ري"،وكتاب" أفعل من كذا لأبي علي البغدادي"،وكتاب "المجلة في الأمثال عن أبي عبيدة معمر بن المثنى"،وكتاب "الأمثال للمفضل الضبي"[2]

ومن الأمثال والحكم الأندلسية :(لو طلب لبن الطير في اشبيلية وجد)،(من غاب خاب وأكل نصيبه الأصحاب)،(أمدح البلدان وأسكن جيان)،

ومن أشهر البلغاء والأدباء في الأندلس ابن عاصم الأندلسي الغرناطي ،ومن أمثاله وحكمه نجد:(زيادة الظلم خراب).(الخير عادة والصبر عبادة).(جازي الكريم بفعله وأترك اللئيم ولا تنظر إلى عمله).(ثوب خشن يسترك خير من ثوب حرير يفضحك).(حصل زادك ليوم معادك تبلغ مرادك).(زدناه قربا زادنا هربا)ز(إن لم ينفعك ألباز أنتف ريشه).(زيادة الشيء نقصان).

الفرق بين المثل والحكمة:

1- أن الحكمة عامة في الأقوال والأفعال، والمثل خاص بالأقوال.

2-أن الحكمة قد يقع فيها التشبيه وقد لا يقع والمثل وقع فيه التشبيه.

3-أن المقصود من المثل الاحتجاج، ومن الحكمة التنبيه والإعلام والوعظ. ولا يبعد أن يقال بعد ذلك أن المثل هو من الحكمة فهي تعُمُهُ وتعم غيره. ومن هنا قرر الإمام أبو هلال العسكري صاحب كتاب (جمهرة الأمثال) "أن كل حكمة سائرة تسمى مثلاً".

4-أن المثل ينطلق من حاجة نفسية عميقة وهو أكثر شعبية من الحكمة وأعم وأشمل منها.

---

[1] حنا الفاخوري.ص،64.63

[2] ابن خير الأشبيلي.فهرسة ابن خير الأشبيلي.تحقيق:محمد فؤاد منصور ،دار الكتب العلمية .بيروت.لبنان،ط1 1.1998

5-المثل يتسم بالعمومية ،أي يكون نتاج عامة الناس،بينما الحكمة في الغالب هي نتاج خاصة الناس،أي حكماء الناس وعقلائهم.

6-المثل يأخذ طابع المشافهة عادة،بينما الحكمة أغلبها مدون في الشعر والخطب ونحوها.

7-للمثل مورد ومضرب ،وأما الحكمة فهي خلاصة لتجربة إنسانية.

المحاضرةالرابعة: **فن الرسالة في الأدب العربي القديم**

الرسالة أو الترسل هو فن من الفنون النثرية وهو وسيلة التواصل بين الناس. وهي في اللغة من الفعل رَسَلَ والاسم منه الرسالة والرسول والإرسال بمعنى التوجيه، تراسل القوم: أرسل بعضهم إلى بعض[1] .

وفي الاصطلاح هي قطعة نثرية تطول وقد تقصر تبعًا لمشيئة الكاتب وغرضه وأسلوبه،بليغة العبارة. وأسلوبها حسن رشيق وألفاظها منتقاة، ومعانيها طريفة.[2]

استعمل القدامى الرسالة في شتى أنواع الترسل واستعملوها في وسيلة الاتصال والإبلاغ والتفاهم فكانت الرسالة إشارية من أقدم أشكال الرسالة ،حيث كان يغلبها الجانب المادي مثل راية الاستسلام وإشعال النيران للضيافة وهداية الضالين في الصحراء.

وكانت لغوية التي تعتمد الرمز وسيلة لنقل معانيه و هو من أنواع الإشارة وإذ يكون ظاهر الكلام فيه عاديًا ساذجًا. بل يدل أحيانًا على هذيان المرسل إلا أن يكون مضمونه عميقًا ويحتاج إلى رجل فطن ليستخرج منه المغزى المراد به.

كانت الرسالة في هذا العصر يغلبها الطابع الشفاهي في غياب الخط والتدوين وموادهما. لأنه يعتمد بطبيعته على الألفاظ اللغوية التي تؤلف فيما بينها كلاما مفهوما يحمله رجل بعد أن يحفظه من المرسل ليبلغه إلى المرسل إليه بنصه الحرفي الذي قال المرسل أو معانيه الجوهرية التي أرادها المرسل إن أمكن. وهذا ما أدى إلى سقوط كم هائل من الرسائل في ذلك العصر حسب ما جمعه أحمد زكي صفوت في كتابه "جمهرة رسائل العرب".

وكان في هذا العصر الترسل الشعري وكثرت الرسائل الشعرية التي تمثل الوجه الحقيقي الأصيل للترسل الجاهلي ،حتى كانت الوسيلة المثلى لتحقيق هذه الغاية آنذاك هو الشعر الذي ذكر القدماء منزلته الرفيعة في الحياة الثقافية للعرب.

وفي العصر الإسلامي كانت الكتابة في عهد الرسول –صلى الله عليه وسلم- تشمل كتابة الوحي وتدوين الرسائل التي كان الرسول-صلى الله عليه وسلم-يكتبها للملوك والرؤساء يدعوهم إلى الإسلام[3] منها رسالته إلى ملك الروم هرقل"بسم الله الرحمن الرحيم .من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل

---

[1]– ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف القاهرة، تحقيق: عبد الله الكبير علي وآخرون، ط2، د ت، ص 1644.

[2]– عبد العزيز عتيق، الأدب العربي في الأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، ط2، 1976، ص 448.

[3]– شوقي ضيف الفن ومذاهبه في النثر العربي. دار المعارف. مصر ط5، دت ،ص10.

عظيم الروم .سلام على من اتبع الهدى .أما بعد: فأنني أدعوك بدعاية الإسلام تسلم يؤتك الله آجرك مرتين" .

وكذلك كتابة العهود والمعاهدات. ونهض فن الرسائل بدور كبير مع تطور حياة المسلمين الدينية والعقلية والاجتماعية والسياسية فكان أدب الرسائل وليد الحاجة،لذا تنوعت موضوعاتها تبعًا لتلك الحاجة.

فتطورت الرسالة تطورًا ملحوظا من خلال بدايتها ومصطلحها حيث أصبحت تبتدأ بالبسملة مع النبي –صلى الله عليه وسلم- إذ كان يفتتح الكتاب بقوله "باسمك اللهمّ" ثم تحوّل فافتتح الكتاب "بسم الله" فكانت رسائله موجهة، تعالج موضوعات تشريعية وتوجيهية،لها صلة بالدين الجديد ينشر فيها الأصول والأحكام والسنن ويبين فيها حقوق المسلمين وواجباتهم ويوضح فيها أصول الفرائض وأحكامها.

وتتميز رسائل النبي -صلى الله عليه وسلم- باللغة المرسلة وميلها إلى الإيجاز والسهولة مع البعد عن الإطناب و المبالغة ،بعيدة عن التكلف، خالية من عبارات التفخيم.

و في عهد الخلفاء الراشدين ظل أدب الترسل غالبًا للمكاتبات النبوية إذ بقيت الرسائل في هذا العصر متأثرة بتلك التيارات المختلفة منذ فترة مبكرة إلى ما استجد من أحداث خطيرة بعد وفاة الرسول-صلى الله عليه وسلم-. حيث كانت الكتب في الغالب بلغة واضحة الدلالة. صادقة اللهجة خالية من التراكيب الصوري. فهي وثائق تاريخية سياسية لها أهميتها البالغة في تصوير الأحداث.حيث نجد أقصر وأبلغ رسالة في زمن الخلفاء الراشدين لعمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص:"بلغني أنك تجلس في مجلس الحكم متكئا،فاجلس متواضعا يابن العاص وإلا عزلتك.دع التأنق في لبس الثياب وكن لله لابسا ثوب الخوف والندم .ولو كان للمرء في أثوابه شرف،ما كان يخلع أجملهن في الحرم".

فكانت الرسائل الوسيلة المهمة التي لجأت إليها كل الأطراف السياسية المتخاصمة في نوازعهم ودعم حججهم وإبطال مزاعم خصومهم والكشف عن مساوئهم.

وفي العصر الأموي نجد أن الرسائل كثرت خاصة منها السياسية حيث كثرت رسائل الشيعة في هذا العصر وأول حادث تكثر رسائلهم فيه استدعاء أهل الكوفة للحسين بن علي –رضي الله عنه-وما كان بينه وبينهم من مراسلات تحض على الثورة على بني أمية لظلمهم الرعية واغتصابهم الخلافة من أصحاب الشرعيين .وامتازت رسائلهم باختيار المعنى والألفاظ والسجع في الكلام. أما عن ابن الزبير

وولاته في العراق رسائل كثيرة احتفظ بها الطبراني كما احتفظ برسالة كتب بها إليه المختار الثقفي. ونرى ولاته يكاتبون من يوجهونهم إلى الخوارج.[1]

فكثرت الرسائل السياسية بين الخلفاء ،يكتبون بالعهود إلى من يتولون الخلافة بعدهم وهي سنة وضعها أبو بكر وعمر -رضي الله عنهما- سار عليها بني أمية وكذلك كانوا يكتبون بالعهود إلى من يولونهم على الولايات.

ولم تكثر الرسائل السياسية بين الخلفاء وولاتهم كما كثرت في عهد عبد الملك بن مروان خاصة بينه وبين الحجاج بن يوسف الثقفي لكثرة الفتن والثورات التي نشبت في العراق وخرسان وكان الحجاج نفسه يكثر من الكتابة إلى قادته ويكثرون من الرد عليه، وكان يكتب أحيانًا إلى الثوار أنفسهم وكان يكثر من مراسلة قادته في حروب الخوارج الشبيبية وفي فتنة ابن الأشعث وحروب خرسان، ورسائله إلى الأمراء مثل رسائله إلى سليمان بن عبد الملك ،فكانت رسائله تمتاز بتزيينها بالصور الدقيقة والألفاظ الغريبة.[2]

فقد تراسلا كل من الصحابي معاوية بن سفيان وملك الروم هرقل،حيث يقول فيها ملك وقيصر الروم:"علمنا بما وقع بينكم وبين علي بن طالب ،وإنا لنرى أنكم أحق منه بالخلافة ،فلو أمرتني أرسلت لك جيشا يأتون إليك برأس علي".ورد معاوية على هرقل قائلا:"أخان وتشاجرا فما بالك تدخل فيما بينهما ،إن لم تخرس أرسلت إليك بجيش أوله عندك وآخره عندي يأتونني برأسك أقدمه لعلي".

وأيضا رسالة الخليفة أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان إلى عامله على العراق الحجاج بن يوسف الثقفي يعنفه ويوبخه على تجرئه على أنس بن مالك :"بسم الله الرحمن الرحيم .من عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين إلى الحجاج بن يوسف الثقفي،أما بعد فانك عبد طَمَتْ به الأمور فسموت فيها وعدوت طَورك وجاوزت قدرك وركبت داهية آدا وأردت أن تَبُورَني فإن سَوَّغَتُكَهَا مضيت قدما وإن لم أسوَّغْكُهَا رجعت القهقرى،فلعنك الله عبدا أخفش العينين،منقوص الجاعرتين ،أنسيت مكاسب آبائك بالطائف،وحفرهم الآبار،ونقلهم الصخور على ظهورهم في المناهل.والله لأغمزنك غمز الليث الثعلب والصقر الأرنب..... ".ابن كثير البداية والنهاية 9/154

[1]– شوقي ضيف، العصر الإسلامي، ص 459.

[2]– نفسه، ص 460.

ونجد في هذا العصر رسائل عمر بن عبد العزيز التي كانت كتاباته وعظية، وأنه لم ولي الخلافة أرسل إلى الحسن البصري أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل ويرد عليه برسالة.[1]

وشاع في هذا العصر الكتب الوعظية والسياسية والكتابات الشخصية بحكم تباعد العرب في مواطنهم،وتأثير بعض الظروف من موت يقتضي التعزية أو ولاية تقتضي التهنئة أو شفاعة عند ولي لقريب أو صديق أو كتاب أو اعتذار.

ومن أشتهر بهذا اللون عبد الله بن مروان بن جعفر الذي قتل بخرسان، فقد كان بليغ اللسان. يعرف كيف يحول الكلم ويصوغه صياغة باهرة على نحو ما نجده في رسالته إلى إخوانه معانتًا فهو يخير ألفاظه وينتقي المعاني الطريفة ويزينها بالاستعارات والطباقات.

وبالانتقال إلى العصر الأندلسي وجدنا أن الرسائل هي من أهم فنون النثر في هذا العصر وذلك كون كتاب الرسائل من فرسان الشعر الأندلسي استخدموا مواهبهم الشعرية وذوقهم الأدبي للارتقاء بأساليب تعبيرهم والتفنن به. وتنوعت الرسائل في شتى المجالات منها: الرسائل السلطانية التي كانت تصدر عن ديوان الخليفة من جهة للعمال والقادة والأعداء ورسائل الأمان والمبايعة والبشائر.[2]
نذكر منها رسالة الأمير عبد الرحمن الداخل ملك قرطبة إلى أهل قشتالة الأندلسيين والنصارى حول وضع الأمان وعقد المهادنة ودفع الإتاوة من ظلم نصارى الشمال فيقول فيها:"بسم الله الرحمن الرحيم،كتاب أمان من الملك العظيم عبد الرحمن،للبطارقة والرهبان والأعيان ،والنصارى والأندلسيين أهل قشتالة ومن تبعهم من سائر البلدان ،كتاب أمان وسلام ،وشهد على نفسه أن عهده لا ينسخ ما أقاموا على تأدية عشرة ألاف أوقية من الذهب ،وعشرة ألاف رطل من الفضة ،وعشرة ألاف رأس من خيار الخيل ،ومثلهما من البغال،مع ألف درع ،وألف بيضة ،ومثلها من الرماح،في كل عام إلى خمس سنين". كتب بمدينة قرطبة ثلاث صفر عام اثنين وأربعون ومائة.[3]

وقد ازدهر فن الرسائل السياسية في العصر الأيوبي ازدهارًا ملحوظًا وكان من أشهر كتابها القاضي الفاضل،ومن الرسائل ،رسالة أرسلها إلى صلاح الدين الأيوبي إلى الخليفة العباسي في بغداد،ورسالة أخرى للقاضي الفاضل يصف الحروب والجيوش وأحداث المعركة وبشارة بفتح القدس كتبها القاضي الفاضل يُبشر بذلك.

---

[1]– نفسه، ص 462.

[2]– القلشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء وزارة الثقافة المؤسسة العامة المصرية، د ت ، د ط، 490 إلى 502.

[3]احمد العزاوي،رسائل ديوانية أندلسية من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الرابع،مطابع الرباط،المغرب ،ط،1,2013،ص25

أنواعها:

أ- **الرسالة الديوانية:** تعني بها كل المراسلات والمخاطبات والوثائق وغيرها من ضروب الإنشاء ذات الطابع الرسمي،والتي تدخل في باب من أبواب ترتيب الحُكم وتنظيم المملكة وضبط الشؤون الإدارية ومراسلة الأطراف التي يكون التعامل معها على وجه من الوجوه داخل البلاد وخارجها جزءًا من النشاط السياسي.[1]

موضوعاتها: حول التولية ورسائل العهود والمواثيق وشؤون الرعية والجيش والحكم والسلطة.

ومن خصائصها:

- الدقة والسهولة في التعبير و التقيد بالمصطلحات الحكومية والفنية والمساواة في العبارات والبراءة من التهويل والتخيل.

- التزام في مصدر رسالته بالتحميدات الخاصة في موضوعات معينة كالتولية أو رسائل الجهاد.

- تضمين الرسائل الديوانية آيات قرآنية لتدعيم آراء وحجج الكُتاب .

- تضمين أبيات شعرية في بعض الرسائل.

ب- الرسائل الاخوانية: هي تلك الرسائل التي تدور بين الإخوان والأصدقاء والخلصاء .ولهذا النوع من الرسائل ميدان فسيح للإبداع يتبارى فيه الأدباء والكتاب وتتيح لأقلامهم وقرائحهم أن تنطلق على سجيتها وأن يعبر أصحابها عن عواطفهم الشخصية في لغة مصقولة منتقاة وأساليب قوية.

موضوعاتها: للرسائل الإخوانية أنواع شتى تتنوع بحسب الموضوعات التي تعالجها،وهي أكثر شمولاً من الرسائل الديوانية من حيث تنوع الموضوعات.تعالج هموم العصر، تدور حول الإخاء، الصداقة...

فالرسائل الإخوانية هي التي يكتبها الناس لبعضهم البعض،وهي جمع إخوانية نسبة إلى الإخوان والمراد المكانية الدائرة بين الأصدقاء.[2]

منها :التهاني والتعازي والتهادي، الشفاعات، الشوق، الزيارة، خطبة النساء، الاستعطاف، الاعتذار، الشكوى، الشكر، العتاب، السؤال عن حال المريض، الأخبار والمداعبة.

---

[1]– علي بن محمد، النثر الأدبي في الأندلس في القرن الخامس، مضامينه، وأشكاله، ج1، دار الغرب، د ب، ط1، 1990، ص 208.

[2]– القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج8، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط1، 1922، ص 126.

خصائصها:

-التحية والسلام وتضمنها القرآن الكريم والقرآن الكريم

- ارتقاء أسلوب التعبير وجزالته.

- عذوبة اللفظ ومتانته.

- كثرة السجع.

- استخدام الترادف.

- اليسر والوضوح في اللفظ.

- ثراء المضمون وعمق دلالته.

- التعبير عن الأحاسيس والمشاعر.

- التصوير الفني والإيقاع الموسيقى.

من أشهر كتابها: عبد الحميد الكاتب، ابن العميد، الصاحب بن عباد، أبو حيان التوحيدي، ابن زيدون، ابن شُهيد الأندلسي...إلخ.

المحاضرة الخامسة: **السرد العربي القديم- المقامات-**

إن السرد في اللغة هو التتابع والتسلسل[1]. أما في الاصطلاح هو إخبار من صميم الواقع أو نسج الخيال أو من كليهما معا في إطار زماني ومكاني .فهو عبارة عن مجموعه من الأحداث المتسلسلة والمتتابعة ،تقوم بأدائها مجموعة من الشخصيات وفق عقدة وحل في الأخير.

نشأته:

لقد كان السرد عند العرب منذ القديم متوارث شفاهيا على شكل نقل للأخبار وكان على شكل أساطير فسروا بها مظاهر الحياة التي عاشوا فيها ونقلوا لنا تجاربهم وحكمتهم في شكل حكايات ومأثورات شعبية عبر الأجيال.

فكان السرد العربي القديم مجرد قصص وحكايات دارت علي سير الأبطال من ملوك وشعراء وأساطير الأولين والعشاق والكهان ،حيث عرفوا منذ العصر الجاهلي هذا اللون النثري ،فقد كان لهم قصص وأخبار تدور حول الوقائع الحربية ،وتروى أساطير الأولين وحكايات العشاق وحكاية الشعراء مثل حكاية عنترة وعبلة، والمرقش الأكبر مع محبوبته أسماء . إلى أن جاء الإسلام الذي جيئ بقصص الأنبياء وسير الرسل ،وسيرة النبي عليه الصلاة والسلام وسير الصحابة-رضي الله عنهم-

وفي العصر الأموي نمت القصة خاصة ،وتضخمت حتى أصبحت عملا رسميا يعهد إلي رجال رسميين يتقاضون عليه الأجر،حيث تدور قصصهم حول ملوك الدولة الأمية وأحداث الحروب .

أما في العصر العباس فقدي تطور السرد وتنوع حيث أصبح غنيا بمضامينه وأساليبه فظهرت الترجمة والنقل،مثل ما ترجمه ابن المقفع في كتاب كليلة ودمنه من الفارسية الهندية إلي العربية للفيلسوف الهندي بيدبا ،ونجد كتاب ألف ليلة وليلة الذي ترجم إلي العربية وأيضا كتاب الجاحظ للبخلاء .كما ظهرت المقامات مع بديع الزمان الهمذاني.

وهذا بالإضافة إلي القصص الشعبية وملاحم البطولي التي اتخذت لها شكل الرواية ،وأشهرها في العصر العباسي سيرة عنترة وسيرة بني هلال وغيرها.

[1] -ابن منظور، لسان العرب، مجلد 6تحعامر احمد حيدر، راجعه عبد المنعم خليل ابراهيم، دار الكتب العلمية،بيروت،ط1,2003،ص233

وكما أن القصة وجدت في الأدب الأندلسي مثل قصة حي بن يقضان لابن طفيل ورسالة التوابع والزوابع لابن شُهيد الأندلسي وهي قصة خيالية.

أنواع النص السردي:

أ-الحكاية: تحكي واقعة من وقائع الحقيقة أو الخيالية الأسطورية أو الخرافية ، دون الالتزام بقواعد الفن القصصي.ويمكن أن تمثل لها بالنوادر والحكايات التي ترويها كتب الأدب .والحكاية لها بداية ووسط ونهاية ،وهي تصور التجارب الرومانسية الإنسانية و البطولية .كذلك رصد حالة مجتمع خلال فترة زمنية محددة كأغلب الروايات، فهي سرد لأحداث قامت بها شخصيات في زمان ومكان معين بدون عقدة .فالحكاية نثرية أو شعرية ذات مغزى أخلاقي في الأغلب وليس على الإطلاق من الحيوانات، أما موضوعها فيرتبط بما فوق الطبيعي أو الغريب من الوقائع ،وغالبا ما تعود أصولها إلي مصادر التراث الشعبي مثل نوادر أشعب.

ب-الرواية: نص سردي طويل تجتمع فيه أكثر من قصة واحدة .ترتبط وتشارك فيما بينه.

ج-القصة: هي سرد لأحداث قامت بها شخصيات في زمان ومكان معينين لها بداية وعقدة ونهاية.

د-الأقصوصة: هي القصة القصيرة في نصف صفحة .

هـ-الأسطورة: سرد أحداث من المحض لا صلة لها بالواقع .قامت بها شخصيات هي الأخرى من نسج الخيال تكون في أمكنة خيالية وغريبة،وفي زمان خيالي أيضا.

و-الحكاية العجيبة: وهي نسج لأحداث خيالية قامت بها شخصيات خيالية في زمان ومكان من نسج خيال الكاتب لأنها تعكس الواقع بطريقة رمزية.

ر-السيرة: هي سرد لأهم الأحداث التي عرفها مسار الشخصية وتعرف بنقطة التحول.

ع-اليوميات: سرد لأحداث نمر بها في حياتنا اليومية مع تسجيل اليوم والساعة والتاريخ.

عناصر تشكيل النص السردي:

ا-الشخصيات: وتكون رئيسية وثانوية ،فهناك أبطال يستمد ذكرهم طول القصة ويكون لها نصيب الأسد في الحكاية.أما ثانوية تذكر بشكل أقل من ذكر العناصر الرئيسية ،وقد تذكر مرة ولا تذكر ثانية.

ب-الأحداث: هناك حدث رئيسي وأحداث ثانوية ،وهي الأفكار الرئيسية والمغزى الأساسي من الحكاية الذي يوصل بها الكاتب فكرته من خلاله للقارئ والمستمع بالتأكيد.

ج-العقدة: وهنا تصل الحكاية الي قمة ذروتها لتشد القارئ لإكمال الحكاية ،وهي تأزم الأوضاع.

د-الصراع:لكل نص سردي صراع قائم بين صنفين .وهذا الصراع يكون ماديا بين الشخصيات فيما بينها ،وهناك صراع معنوي مثل الخير والشر وصراع العبودية مع الحرية وصراع العلم مع الجهل.

هـ-الحل: وهنا يتوصل الكاتب ليوضح الهدف من العقدة ،وتوضيح مغزاه، ويكون هذا الحل أو النهاية أما مأساة أو ملهاة أو دراما(مأساة وملهاة).

و-الزمان: وهي الأحداث التي تدور في زمن الماضي والحاضر والمستقبل.ونستشفها من خلال الأفعال.

ر-المكان: وهو مسرح الأحداث التي لعبت فيه الأدوار بالنسبة للشخصيات وهي أماكن منفتحة وأماكن منغلقة ،أما المنفتحة في التي ليس لها حدود مثل: بحر وصحراء وغابة وجبل...الخ. آما المنغلقة فهي التي تتمتع بحدود مثل بيت ومقهي و سجن. الخ.

ث- الحوار: ويكون الحوار داخلي ،أي بين النفس ونفسها (الهمس)أو(المونولوج)،وحوار خارجي يكون بين الشخصيات فيما بينها.

ع-اللغة :فاللغة هي التي تربط وتجمع عناصر القصة وتكون عاده بالفصحى تتخللها كلمات أجنبية وأخري عامية.

ز-الوصف:ويكون في وصف الشخصيات داخليا وخارجيا ،فالوصف الداخلي يكون معنوي من خلال أفعال الشخصيات نكتشفها مثل: الأنانية والغيرة والحقد والوفاء.....الخ. أما خارجي يكون مادي يتمثل في وصف القامة من طول وقصر ولون البشرة والعينين والشعر.....الخ .وأيضا هناك الملابس من ألوان واناقة ورثة .....الخ

ويوجد أيضا في الوصف وصف الطبيعة والأماكن

خصائص ومميزات السرد العربي القديم:

- ✓ الغاية والهدف منه سرد الأحداث ونقلها
- ✓ يمتاز بالجمل الإخبارية والإحداث
- ✓ كثرة أفعال الحركة والأفعال الماضية لسرد الأحداث والمضارعة لوضع الخيال في خضم الأحداث
- ✓ ينمي الخيال لذا القارئ.
- ✓ كثرة أدوات الربط.
- ✓ غرس خبرة اجتماعية للقارئ ومعرفية.

فن المقامات:

المقامة في اللغة تعني المجلس. ومقامات الناس مجالسهم،ويرى ابن منظور "أن المقامة استعملت بمعناها المجازي لتدل على القوم الذين يجلسون في المجلس،ويضيف أن المقامة بضم الميم (الإقامة).يقال أقام الرجل إقامة ومقامة (كالمقام والمقام)بفتح الميم وضمها[1]

وبديع الزمان الهمذاني نفسه يستعمل المقامة بمعنى مجلس ،قال في المقامة الوعظية[2] (قال عيسى بن هشام:فقلت لبعض الحاضرين،من هذا؟قال: غريب قد طرأ لا أعرف شخصه،فأصبر عليه إلى آخر مقامته ،لعله ينبئ **بعلامته.....)**

المقامة البديعية:

تعنى المقامة الفنية الجنس الأدبي الذي ظهر في القرن الرابع الهجري وبالتحديد في العصر العباسي ،الذي ازدهرت فيه مختلف الفنون النثرية ،ويعود فضل إنشائها إلى بديع الزمان الهمداني[3](358هـ/395هـ)،(969م/1007م) ولذلك نسبت إليه.

والمقامة قصة أو حكاية قصيرة بطلها شخصية خيالية تتصف بالكدية والاحتيال ،تقوم على حدث طريف أو ملحة ،وتتميز بأسلوب أنيق،وليس الغاية من إنشائها تذوق جمال القصص ولا إفادة الوعظ ولا تحصيل العلم ،وإنما هي قطعة أدبية فنية قد يقصد بها (الفن للفن) وتجمع موارد اللغة ونوادر التركيب في أسلوب مسجوع وموشي بحلل البديع،يعجب أكثر مما يؤثر ،ويلذ أكثر مما يفيد ولم

[1] ص242 لسان العرب

[2] أبو الفضل أحمد بن الحسين .مقامات بديع الزمان الهمداني،قدم وشرح محمد عبده،دار الكتب،بيروت،ط2003.2،ص151

[3] يوسف نور عوض،فن المقامات بين الشرق والمغرب،دار القلم ،بيروت،لبنان،ط1,1979،ص08

تراع قواعد الفن القصصي فيما كتب من هذا النوع وإنما صرفوا جهودهم إلى تحسين الألفاظ وتزيينها [1]

يرى كثير من الدارسين أن موضوعات المقامة تدور أغلبها حول الكدية و الاحتيال والحقيقة أن الكدية صفة لصيقة بالبطل وحده وأن لكل مقامة موضوعا واجتماعيا ،دينيا ،فلسفيا.... [2]

أسند بديع الزمان الهمذاني البطولة في مقاماته إلى أبي الفتح الاسكندري ،وأسند رواية أحداثها إلى عيسى بن هشام ،وتجمع البطل والرواية صلة وثيقة ومعرفة قديمة ،فهو يراه في كل حادثة ويسمعه في كل مجلس ،ثم يروي ملحة وطرائفه واحتياله للناس[3].

نشأة المقامة:

يرى أحمد ضيف أن المقامة أصلها فارسي ،وأنها انتقلت من اللغة الفارسية إلى اللغة العربية ،وهذا القول مردود عليه ،باعتراف مؤلف فارسي هو محمد تقي بهار في كتابه"سبك شناسي يا تاريخ تطور نثر فارسي"[4]الذي يرجع أن لفظ مقامة من ابتكار بديع الزمان الهمذاني،وذلك أن لكل اختراع في الأدب العربي يرجع إلا وله صدى في الأدب الفارسي.

ويرى أن ظهور المقامات في النثر الفارسي يعود إلى القرن السادس الهجري ومثل بمقامات القاضي حميد الدين عمر بن محمد المحمودي البلخي(559) كنموذج لذلك.

وأضاف القاضي حميد الدين أراد تقليد مقامات كل من بديع الزمان و الحريري ولكنه تأثر ببديع الزمان وقلده أكثر ،كما يبدو ذلك من المقامة الثانية والعشرين المسماة"المقامة الشكباجية"التي هي نفس ترجمة وتقليد المقامة المضرية لبديع الزمان الهمذاني"[5]

إن المنشئ الحقيقي للفن المقامي ،يذهب المستشرق الإنجليزي"مارغوليوث"في دائرة المعارف الإسلامية إلى أن بديع الزمان الهمذاني زعم أنه ابتكر فن المقامات ،والحقيقة أن أبا بكر ابن دريد هو الذي أنشأ هذا الفن[6]،ويميل إلى هذا الرأي زكي مبارك الذي ذهب إلى أن عمل المقامات ليس من ابتكار الهمذاني ولكنه عارض بها أربعين حديثا أنشأها ابن دريد، ويقر"جورجي زيدان"أن أحمد بن فارس له

---

[1]أحمد حسن الزيات،تاريخ الأدب العربي،ص292

[2]يبين المشرق والمغرب،ص08وسف نور عوض فن المقامات

[3]ليندة قياس لسانيات النص.النظرية والتطبيق.مقامات بديع الزمان الهمذاني أنموذجا.تقديم عبد الوهاب شعلان،مكتبة الأداب القاهرة .دب2009ص90

[4]مصطفى الشكعة،بديع الزمان الهمذاني رائد القصة العربية والمقالة الصحفية ص300

[5]المرجع نفسه ص301

[6]دائرة المعارف الإسلامية .مادة الهمذاني.مج3ص471

فضل السبق في وضع المقامات لأنه كتب رسائل نسج على منوالها العلماء ،واشتغل عليها بديع الزمان الهمذاني[1]

ويجزم"مارون عبود"بكل وضوح أن فن المقامة من إبداع الهمذاني،فلا لابن فارس،ولا لابن دريد يد في إنشائها ويرى أن مبدعها الحقيقي هو بديع الزمان الهمذاني ،وأن الكتاب الذين جاؤوا بعده قد وقفوا عندما اجترعه البديع ،ولم يزيدوا عليه فله فضل الريادة والأسبقية في هذا المجال ،ولم يتفوق غليه إلا الحريري لما تتميز به لغته من شرف اللفظ وجودة المعنى[2]

يتضح من كلام مارون عبود أن البديع أنشأ هذا الفن من عدم،وأنه لم يتأثر بأي نموذج فني سبقه ،وهذا الرأي لاشك أن فيه إعادة نظر ،أما عبد المالك مرتاض "فيذكرأن البديع هو مؤسس فن المقامة وهو نفس ما ذهب إليه مارون عبود إلا أن مرتاض لا ينكر تأثر بديع الزمان بسواه ،فمن التعسف أن يجزم أي باحث بأن البديع أوجد مقاماته من عدم [3]

فإذا لم يكن البديع قد أنشأ مقاماته من عدم ،فلاشك أن هناك نماذج إنسانية قد تأثر بها وساعدته على الهام نموذجه ألمقامي ،وهذا ما أكده يوسف نور عوض ،إذ أشار إلى أن هناك جملة من المؤثرات الفنية ،والأدبية أحدثت أثرها في صناعة المقامة،تمثلت أساسا في كتاب البخلاء ورسالة التربيع والتدوير للجاحظ وحكاية أبي القاسم البغدادي ورسائل إخوان الصفا،بالإضافة إلى حكايات شعبية مثل حكاية عنترة بن شداد وشخصية حاتم الطائي ،والقصص المترجمة ككتاب كليلة و ودمنة وقصة ألف ليلة وليلة.....

الخصائص العامة لفن المقامة:

-لكل مجموع مقامات مجلس واحد لا تنقل منه إلا ناذرا أي(وحدة مكان ضيقة)[4]ولها بطلان هما الراوية و المكدي.

أما الراوية:فهو الشخص الذي ينقل الأحداث المقامة من المجلس الذي تحدث فيه.

وأما المكدي:فهو في الغالب شخص خيالي وظيفته النصب و الإحتيال على الناس حتى يحصل على ما يرغب عليه،وشخصية البطل هذه في الحقيقة هي انعكاس لشخصية المؤلف الذي يتميز بذكائها الحاد ،وفطنتها لشديدة واطلاعها لواسع على العلوم الكثيرة،وقدرتها الكبيرة على نظم الشعر وحل الألغاز،وتأليف الخطب وقول الأحاجي.

---

[1]تاريخ الآداب العربية ،المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية،الجزائر ،1993،ج2،ص619

[2]أداب العربص318

[3]المقامات في الأدب العربي،الدار التونسية للنشر ،تونس،ط 2 ،1988،ص139

[4]عمر فروخ،تاريخ الأدب العربي ،ص58

-كما لكل مقامة اسم خاص بها،وأسماء المقامات في الغالب مأخوذة من أسماء المدن أو المحلات أو اللون أو بعض الأكلات الشعبية كالمقامة المضيرية مثلا.

-للمقامات موضوعات متعددة ومتنوعة منها الأدبي والفقهي ،والفكاهي ،والخمري،والمجوني[1] وهذه المواضيع في الغالب تخدم غرضا واحدا يتمثل في تقديم صورة شاملة لواقع البيئة ،وتصوير أحوال الناس في ذلك العصر ،ويزخر أسلوب المقامة بمختلف الألوان البيانية ،من تشبيهات واستعارات وكنايات .وأما المحسنات البديعية فهي مطردة ولا تخلو منها مقامة وبخاصة السجع فقد أكثر منها لحد الإفراط.

وقد حرص مؤلفو المقامات على انتقاء الألفاظ،وتوليد الصور والإكثار من اقتباس الشعر ،أما ظاهرة التضمين فواضحة لديهم ،وأكثر ما تتجلى في المعنى القرآني ،والحديث الشريف والأمثال السائرة.

وتعد المقامات تحفة رائعة من تحف الأدب العربي ،وفتحا لمحاولة كتابة القصة العربية ،ورغم ما كتب عن هذا اللون النثري قديما وحديثا إلا أنه لايزال مجالا خصبا للمزيد من الدراسات.إنه في الحقيقة يمثل كنزا يقتضي الكشف عنه مجهودات مختلفة [2]ومتواصلة.

[1]حنا الفاخوري ،الموجز في الأدب العربي وتاريخه،ص187

[2]ليندة قياس، لسانيات النص،النظرية والتطبيق،مقامات بديع الزمان الهمذاني أنموذجا،ص93

المحاضرة السادسة : **أدب الرحلة القديم في المشرق والمغرب والأندلس**

الرحلة في اللغة هي حركة انتقال الشخص، أو أشخاص من مكان إلى مكان آخر فهي بمعنى الوجهة والمقصد والسير والتنقل والسفر.

وأدب الرحلة هو نوع من أنواع النثر. وجد في أدبنا العربي منذ القرن الثالث هجري، وتقوم موضوعاته على الرحلات ويُكتب بلغة أدبية خاصة .لها خصائصها التي تميزها عن التسجيلات الجغرافية التي تتصف بالأسلوب العلمي.

ويرى الإمام الغزالي السفر والرحلة: بأنها حركة مخالطة ،أو نوع من المخالطة مع زيادة تعب ومشقة، ويبين أن الفوائد الباعثة على السفر لا تخلوا من هرب أو طلب. فإن المسافر يكون له مرجع عن مقامه. ولولاه لما كان له مقصد يسافر إليه، وإما أن يكون له مقصد أو مطلب.[1]

إن الرحلة وجدت منذ أن وجد الإنسان منذ الأزل البعيد فكانت رحلة من أجل البحث عن الحياة والاستقرار الاجتماعي لدوام واستمرار الحياة .فكانت القبائل في العصر الجاهلي ترحل براحلتها من مكان إلى آخر إمّا بسبب الشعور بالأمن من الغزو الأجنبي أو عن البحث عن مظاهر الحياة من كلأ وماء. فكثير ما كان ينزلون أمام ينابيع الحياة وينصبون خيامهم.

ومع مجيء الإسلام نجد رحلة الإسراء والمعراج للنبي صلى الله عليه وسلم التي زودنا بها حول ما شاهده ووصف لنا تلك الليلة التي قضاها في إسرائه وأيضا نجد رحلة النبي صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة لنشر الدين الجديد، دين الحق والمساواة، الدين الإسلامي، وكذلك رحلة الشتاء والصيف تلك الرحلتين التجاريتين وكانت رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى الشام.

لكن لا ننفي أنه لم تكن هناك رحلات أخرى وهذا راجع لعدة أسباب منها: عدم انتشار الكتابة والتدوين حتى يأتي القرن الثالث الهجري لنجد أوّل رحلة لسلام الترجمان (227 ه)إلى حصون جبال القوقاز عام(227 ه) بتكليف من الخليفة العباسي الواثق بالله للبحث عن سدّ يأجوج ومأجوج وكذلك رحلة التاجر سليمان السيرافي بحرًا إلى بحر المحيط الهندي ثمّ تأتي أيضًا رحلة المقدسي صاحب "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم "،والإدريسي الأندلسي في "نزهة المشتاق في اختيار الآفاق".[2] ورحلة البغدادي عبد اللطيف وابن وهب القرشي واليعقوبي بن موسى محمد.

---

[1]– محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري، لسان العرب دار صادر. بيروت. ط1، 112، ص 276–279.

[2]– فؤاد قنديل ، الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب ط2، 1423 ه–2002م، ص 43.

وفي القرن الرابع والخامس تصادفنا رحلة المسعودي (ت 346) مؤلف "مروج الذهب" وتأتي رحلة قدامة بن جعفر وأبو زيد البلقي وابن حوقل، ثم نجد رحلة البيروني (ت 440 ه) المسماة "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة" نموذجًا فذًا مخالف لكل ما سلف ،إذ تعد وثيقة تاريخية هامة تجاوزت الدراسة الجغرافية والتاريخية إلى دراسات ثقافات مجتمعات الهند قديمًا. ممثلة في لغاتها وعقائدها وعاداتها. يقارن فيه البيروني بين اللغة الهندية واللغة العربية على نحو جديد وقد مكث في الهند ما يقارب الأربعون سنة قضاها برفقة السلطان محمد الغزنوي[1] .ونجد أيضا في القرن الرّابع الهجري ابن فِضَلان أبو عبيد البكري.

ويعد القرن السادس الهجري وما يليه أكثر قرونا إنتاجًا لأدب الرحلات. هنا تُطالعنا رحلات بن جبير (ت 614 ه) الثلاث أولاها إلى الحج وثانيتها للشرق وقد ،استغرقت عامين (585 ه-587 ه) والثالثة للمشرق أيضا قام بها وهو شيخ مسن أراد أن يتعزى عن فقد زوجته عام(601 ه). ولم يعد بعدها للأندلس بلده، فمكث قرابة عشر سنوات متنقلا بين مكة وبين المقدس والقاهرة حتى توفى بها وسجل لنا مقاومة المسلمين للغزو الصليبي بزعامة نور الدين وصلاح الدين الأيوبي. كما وصف مظاهر الحياة في صقلية وبلاط النورمان في لغة أدبية وتصوير شائق. هذا فضلا عن وصفه مظاهر الرغد والحياة المزدهرة في مكة المكرمة. كما نجد رحلات كل من أبو بكر بن العربي. والإدريسي وأبو حامد الغرناطي في نفس القرن السادس[2]، أما من القرن السابع نجد البغدادي وياقوت الحموي وابن سعيد الأندلسي والعبدري.

وفي القرن الثامن نجد ابن بطوطة (ت 703 ه-779ه) أعظم رحلة للمسلمين وقد بدأت رحلته(723 ه) من طنجة بالمغرب إلى مكة المكرمة وظل زهاء تسع وعشرين سنة يرحل من بلد إلى بلد ثم عاد في النهاية ليملي مشاهداته وذكرياته على الأديب والكاتب محمد بن جُزي الكَلبي بتكليف من سلطان المغرب أبي عِنان المريني . امتدت رحلته من المحيط الأطلسي غربًا إلى بحر الصين شرقًا. [3]

سمي ابن بطوطة رحلته "بتحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" وروى مشاهداته لبلدان إفريقية وكان هو أوّل مكتشف لها. كما صوّر الكثير من العادات في مجتمعات الهند بعد ثلاثة

---

[1]– نفسه، ص 58.

[2]– عواطف بنت محمد يوسف نواب، الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز ما بين القرنين السابع والثامن، دار عبد الملك عبد العزيز، الرياض، ط1، 1429ه–2008م، ص 419.

[3]– حسين محمد فيهم، أدب الرحلات. عالم المعرفة، الكويت. د.ط، 1990. ص 22/ 23.

قرون من الفتح الإسلامي لها. فالرحلة التي قام بها هي صورة شاملة دقيقة للعالم الإسلامي خلال القرن الثامن الهجري من الإخاء بين الشعوب.

ونجد أيضا في نفس القرن (8 ه) العلامة ابن خلدون (807 ه) في رحلته غربًا وشرقًا وهو مزيج بين السيرة الذاتية وأدب الرحلات، حيث وصف رحلته إلى بلاد الأندلس قدومًا من تونس إلى الجزائر ثم المغرب الذي قضى في سجنها سنوات ثم الأندلس منفيًا. ثم مصر التي أقام بها ربع قرن حتى توفي بها.

ونجد أيضًا في الأندلس لسان الدين الخطيب (776 ه) في كتابه "خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف "لأديب غرناطة يصف لنا مشاهد هذين الرحلتين في الأندلس.[1]

أسباب الرحلة:

تختلف الرحلات باختلاف الأغراض البشرية التي تستدعي القيام بها غير أن هناك أغراضًا أخرى استدعت كتابتها بعد ذلك. فالرحالون لم يهتموا برحلاتهم إلا في القرن الثالث هجري (التاسع ميلادي) واستمر التأليف فيها إلى أن أصبحت فنا أدبيًا مميزا حدده الباحثون حديثا وصنفوه ضمن أنماط السرد الذي يتخذ الرحلة موضوعًا له، لكن فريقًا آخر من الباحثين يرون أن لهذا الفن قيمتين: الأول قيمة علمية والأخرى فهو يتناول الكثير من نواحي الحياة الواقعية" إذا تتوفر فيه مادة وفيرة مما يهم المؤرخ الجغرافي وعلماء الاجتماع والاقتصاد ومؤرخي الآداب والأديان والأساطير[2]

وقد ذهب الرحالة المسلمون إلى أماكن كثيرة الأسباب شتى وبعضهم كان يدون رحلته ويسجلها قصة باقية عبر العصور فمن أسباب تدوين الرحلات :أن يطالب الحاكم من الرحالة تدوين الرحلة أو يطالب الأصدقاء ذلك. وقد تكون رغبة الرحالة أنفسهم في إفادة القراء وتثقيفهم بالجديد. ومن الأسباب أيضًا أن يهتدي المسافرين بهذه الرحلة المدونة. فتكون دليلا لهم. وكذلك لإبراز مناسك الحج والعمرة وإعانة المسلمين على معرفة الديار المقدسة وكيفية الوصول إليها والتجول فيها وتاريخ البلدان وحضارتها وشعوبها. وللتعرف الى لبلدان الغربية وأبرز معالمها وعجائبها وعاداتها وتقاليدها.[3]

---

[1]–نوال عبد الرحمن السوايكة، أدب الرحلات في الإسلام وأنواعها وآدابها. مكتبة الدار العربية للكتاب القاهرة ط1، 1992 ص96.

[2]– حسني محمود حسين. أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس بيروت. ط2، 1983. ص 45.

[3]– عبد الرزاق الموافي، الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، دار النشر للجامعات المصرية، د ط، 1415ه/ 1995م ص 25.

أنواع الرحلات:

أ-الرحلات الوصفية: وتشمل على الجوانب التاريخية القديمة والمعاصرة للرحلة والنواحي الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وقد اشترك في هذه النواحي جميع الرحالة ماعدا الرعيني وابن جابر الوادي اللذان نجدهما يخرجان لطلب العلم ثم يصفان جميع جوانبها.

ب-الرحلات عن طريق البرامج: كان الرحالة المغاربة والأندلسيون ينتهزون فرصة أدائهم فريضة الحج في التجول بين المراكز العلمية مثل الإسكندرية والقاهرة للقاء العلماء والأخذ عنهم وتسجيل أسماء مشايخهم وأسانيدهم ومروياتهم وما أخذوه عنهم من كتب وإجازات. فمثلا نذكر ابن رشد فقد حرص على لقاء العلماء والأخذ عنهم خاصة في ميدان رواية الحديث وما يتعلق به بالإضافة إلى ترجمة لعدد كبير من أهم العلماء المعروفين في البلدان التي زارها.[1]

أهداف الرحلة:

أ-أهداف دينية: إن الحج لبيت الله الحرام يعد أسمى هدف وأشرف غاية ينشدها الرحالة المسلمون على مر العصور، فقد كانت ومازالت نقطة ومركز التجمع للمسلمين في مختلف الأقطار الإسلامية وتعتبر صلة وصل بين العلماء والأقطار الإسلامية في شرق البلاد وغربها وكذلك سعوا في طلب العلم ولقاء العلماء ومحاورتهم والأخذ عنهم .

ب-الأهداف السياسية: مثل الريحاني الذي جاب فيها البلاد العربية في شبه الجزيرة العربية وقد قام بهذه الرحلة للتوفيق بين حكام العرب وخدمة الوحدة العربية.

ج-الأهداف العلمية: حيث حاول الرحالة تطبيق المعلومات التاريخية والتراثية والجغرافية على الطبيعة عبر الطرق التي سلوكها وأبدوا اهتماما بالغًا باستكشاف البلاد والقرى التي وقفوا عليها. كما اهتموا أيضا بأسماء الأماكن القديمة والحديثة وموقعها وأهميتها وأصولها ولغاتها ومعرفة الأبعاد بين البلاد التي يمر بها.[2]

خصائص ومميزات الرحلة:

1-تنوع أسلوب الرحلة من السرد القصصي إلى الحوار وإلى الوصف وغيره .وأسلوبها يمتاز بالكتابة القصصية المعتمدة على السرد المشوق بما يقدمه الأديب من متعة ذهنية كبرى.[3]

---

[1]- عبد الرحمن المنيع، الرحلات العربية مصدرها من مصادر التاريخ، دار الجوهرة الرياض د ط، 2010. ص34.

[2]- نفسه،ص 92.

[3]- شوقي ضيف، الرحلات. دار المعارف، كورنيش، النيل، القاهرة، ط4، 1991، ص 04.

2-الاعتماد على التجربة والاختبار لا على الرواية والنقل أحيانًا (بن جبير)،قام بقياس طول وعرض المسجد الحرام. وأما العبدري و التيجيني السبتي أثبتا نفس القياس كذلك الأرز قي وابن بطوطة.

3-موضوعاتها حول أداء فريضة الحج وطلب العلم والتجارة.

4-الوصف الجغرافي والعمراني (بحار. مجتمعات. آثار. جبال. صحراء. حصون مساجد، أحوال الجو. مدن، عادات وتقاليد البلدان...) وأيضا التطرق للبدع والشائعات المنتشرة وتصحيح ما يرونه من أخطاء شائعة وتسجيل الأحداث التاريخية المعاصرة.[1]

[1]– عواطف محمد يوسف نواب، الرحلات المغربية والأندلسية، دار النشر والتوزيع، 1996، ص 88.

المحاضرة السابعة : فن الوصية في الأدب العربي القديم

الوصية في اللغة هي العهد والوعد والميثاق[1]، وهي من الوصل أو الاتصال ويتضمن هذا الاتصال المعنيين المادي والمعنوي. وهي على أية حال محاولة للاستمرار فهو ضد الانقطاع ،فهو اصطلاحًا أيضًا ايصال الخبرة ونقل التجربة ومد جسور المعرفة التي تتناقلها البشرية لتحقيق الخير لهم بشكل عام أيًا كان ميدان تلك الوصية. فالوصية تضمن اتصال السلوك السليم والرأي السديد عن طريق نقله للأجيال وعليه فالوصية تلتبس بالنصح والإرشاد والوعظ والحكمة.[2]

لقد عرف العرب الوصية في الجاهلية وقبل الجاهلية وهذا ما أدى إلى معرفتهم الكتب السماوية السابقة وتناقلوا مضامينها، ثم أن الشعوب والحضارات كانت تحتفل بالحكمة والحكماء وأصحاب الرأي والكهنة والسحرة.....فكانوا يلجئون إليهم أن استعصى عليهم أمر ما، وأولئك النفر كانوا يقدمون النصائح والوصايا للناس.

فكان الملوك والأمراء يوصون رعاياهم .وكان مماليك دول أوصوا حكامها أبناءهم بسلسلة من الوصايا. ومن تلك الوصايا وصية قحطان بن هود لأبنائه قبل موته.[3]

فكانت الوصايا في العصر الجاهلي متعددة تنتظم في شتى الأغراض من شؤون الحياة (الاقتصادية، السياسية، الاجتماعية، الدينية والأخلاقية...).

فنجد وصايا أكثم بن صيفي الذي غاض في شتى مجالات الوصية مثل وصيته لكسرى ملك الروم حول الحكم والحياة ،حيث أن أكثم بن صيفي في كتابه وضع بابًا أسماه باب" الوصايا" كانت عبارة عن جمل قصيرة وحكم وأمثالٍ.

كما نجد وصايا لآخرين غير أكثم بن صيفي منهم قس بن ساعدة الأيادي الذي كان خطيب قومه وحكيمًا وحليمًا وشاعرًا. وأيضا هناك عدد من الوصايا التي صدرت عن الآباء لأبنائهم قبيل وفاتهم فذاك سعد العشيرة يوصي أبناءه عن مكارم الأخلاق. وأيضا وصية مالك بن المنذر البجلي لأبنائه ووصية عمرو بن الغوث بن طيء لولده، ووصية قيس بن يكرب لولده.

---

[1]– ابن منظور لسان الغرب م11، ص 412.

[2]– المفضل الضبي، المفضليات–تحقيق احمد شاكر هارون ،دار المعارف. القاهرة ط3، د.ت 384.

[3]– دعبل بن علي الخزاعي– وصايا الملوك وأبناء الملوك من ولد قحطان بن هود، تحقيق نزار إباضة. دار صادر بيروت ط1 1997 ص177.

كذلك كان للنساء نصيب في الوصية مثلما نرى وصية أمامه بنت الحارث لابنتها يوم حملت إلى زوجها الحارث بن عمر[1].

ثم إن الشعراء أوصوا من فيض تجاربهم ونصحوا لأقوامهم وأصدقائهم وأهليهم فذاك لقمان بن يعمر الأيادي في قصيدة لقومه يوصيهم ويحذرهم من الغفلة من العدو و التجند للحرب.

وإذا كانت الوصية في العصر الجاهلي قد تبوأت منزلة مرموقة، فإنها قد بلغت أوجها وقفزت إلى الصدارة ببزوغ فجر الإسلام وازدهرت وتطورت حسب موضوعاتها: الإيخاء والمساواة والعدل وعلاقة العبد بربه والعلاقات الزوجية والمثل العليا وصلاح الدنيا والآخرة...

وأيضا نجد وصايا ما جاءت في نسيج الخطب وبعضها جاء مباشرًا في حين جاء بعضها الآخر غير مباشر يقدم في سياق القصص القرآني وضرب المثال فكانت وصايا النبي -صلى الله عليه وسلم -لعموم المسلمين وجمهور الصحابة ورسله إلى الملوك والأقوام الأخرى وأوصى قادة السرايا، وأوصى المسلمين منظمًا بذلك شؤون حياتهم. وكان النبي-صلى الله عليه وسلم- يقرأ عن قومه من الوحي ما نزل في باب الوصية مصداقًا لقوله تعالى: "يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين"[2] وأيضًا: "وبعهد الله أوفوا. ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون " وقوله"ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا"وفي الحديث الشريف "استوصوا بالنساء خيرًا". فكتب النبي-صلى الله عيه وسلم- إلى المهاجرين والأنصار و صية في الأخلاق وكذلك خطبة الوداع التي جمعت في طياتها عدّة وصايا للمسلمين. ونجد أيضًا نصائحه عليه الصلاة والسلام المرسلة إلى الأقوام ما أوصى به عيّاش بن أبي ربيعة[3] لما بعثه إلى بني عبد كلال وعدة وصايا من هذا القبيل.

وقد سار الخلفاء والصحابة -رضوان الله عليهم- على نهج النبي -صلى الله عليه وسلم- فهذا أبا بكر الصديق - رضي الله عنه- يوصي الصحابة في غير موضع موضحًا لهم سبل الرشد ،ومن ذلك كتابه إلى الأمراء في حروب الردّة[4]. وكذلك وصيته إلى الخليفة عمر بن الخطاب –رضي الله عنه- لما حضره الموت يستخلفه في خليفته ويذكره بتقوى الله والعمل الصالح، وذكر الفرائض والحق والباطل ويوم

---

[1]– أبو حاتم السجستاني، المعمرون والوصايا، تحقيق عبد المنعم عامر، دار أحياء الكتب العربية القاهرة، د ط، 1971، ص 122-123-125.

[2]– نفسه، ص 122.

[3]– ابن عبد ربه، العقد الفريد، تحقيق التونجي، دار صادر، بيروت، مج1، ط1، 2001، ص 43.

[4]– الشيخ محمد الخضري، إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء المكتبة التجارية الكبرى، مصر، د.ط، د ت، ص 23، 24.، ص 122.

القيامة...كما أوصى عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- قبل موته مخاطبا ابنه عبد الله بن عمر يريد منه أن يصل وصيته إلى الخليفة بعده.[1]

وقد سار خلفاء بني أمية على نهج الخلفاء الراشدين في الوصايا. فمعاوية بن أبي سفيان أوصى إبنه يزيد[2] لما شعر بدنو أجله فكانت وصيته سياسية حول الحكم فذكر حول من يتنازع معه حول الخلافة من الحسين بن علي وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير.

وقد أوصى عبد المالك بن مروان وعمر بن عبد العزيز وكثير من الخلفاء بني أمية وأمرائهم وولاتهم[3]، وأوصى الأدباء والكتاب والشعراء وحملوا للناس من خبراتهم في أمور الحياة فابن قتيبة يوصي العلماء والأدباء "إذا أردت أن تكون عالمًا فاطلب فنًا واحدًا وإذا أردت أن تكون أديبًا فتفنن في العلوم"[4]

أيضا في العصر العباسي سار الولاّة والخلفاء والكتاب والأدباء فيه على نحو الأمويين في وصاياهم مثل ما نجده في وصايا الخليفة المنصور إلى ابنه المهدي[5] حول موضوع الخلافة بعده والسلطة قبل موته وهي وصية سياسية ينقل الخليفة لابنه خلاصة تجارية في شؤون الحكم وسياسة الرغبة، ويوصيه بكيفية التعامل مع الرعية والعمال ثم يذكره بعلاقته مع الله عزّ وجلّ والتعفف في أموال الخزينة والإنصاف في أحكام الشريعة ثم ذكّره بأحقية توليه الخلافة بعده.

وكان للشعراء والأدباء والنساك والوعاظ جملة من الوصايا والمواعظ تناولت جوانب الحياة من دينية وسياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية... حيث برز من الشعراء أبي تمام وأبي العتاهية والمتنبي.

أما في العصر الأندلسي سارت الوصية على نظيرتها في المشرق العربي حيث جاءت متنوعة بشكل عام لتنقل عموم الخبرة الشخصية والعامة التي تحصلت لدى الموصي إلى الآخرين. فشرع الوصي يستنفر طاقاته اللغوية وإمكاناته المعرفية لينتج نصوصًا وعظية في المقام الأوّل أدبية في المقام . فكان

---

[1]– المبرد أبو العباس، التعازي والمراثي والمواعظ والوصايا، تحقيق ابراهيم الجمل، مراجعة محمود سالم نهضة مصر للطباعة والنشر ، د ط. دت، ص 155

[2]– نفسه، ص 139-140.

[3]– نفسه، ص 143-153.

[4]– نفسه، ص 359.

[5]– محمد بن جريرالطبري، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ج2، د ط، د ت، ص 344-345.

من النوع الأوّل ديني الذي ينظم العلاقات بين العبد وخالقه وهو ينهل (النوع) من القرآن الكريم والسنة النبوية مرغبًا مرهبًا. وكان منها الاجتماعي الذي ينظم العلاقات الإنسانية العامة والخاصة. والتعاطي في شؤون الحياة ،وكان منها السياسي الذي ينظم علاقات السلاطين أولى الأمر برعيتهم من جانب وينظم علاقات الرعية بهم من جانب آخر ، على أن الوصية تتسع لأكثر من ذلك. إذ تأتي على الحديث في كثير من الموضوعات التربوية والأدبية والقضائية العامة والخاصة.

ففي الأندلس كثرت وصايا الشعراء على شكل مقطوعات أو قصائد كانت تنظم في غرض الوعظ والإرشاد وتوصي الناس بخلاصة تجربة الشاعر وخبرته، منهم عبد الكريم االقيسي وابن شُهيد الأندلسي وابن خفاجة ،ابن حمديس، ابن جبير، ابن هانئ الأندلسي، لسان الدين الخطيب... وكانت وصايا نثرية صادرة عن رجال الدولة والحكام والأمراء منها وصية يوسف ابن تاشفين وأبي بكر بن القصيرة وابن سعد لسان الدين بن الخطيب...[1]

أنواعها:

أ- **الوصية الاجتماعية:** هي تلك الوصايا التي تتحدث عن أدب الحياة العامة والتعامل مع الآخرين والأصدقاء والأعداء والتعامل مع النساء وفي مخالطة الناس ومعاشرتهم والاعتماد على النفس.

ب- الوصية الدينية: وتتمثل في الحث عن الأمور الدنيوية والوعظ والإرشاد والنصح والتذكير بأهوال القيامة والتذكير بالموت والآخرة ،ولها جانب أخلاقي في المعاملات والعبادات.

ج- الوصية السياسية: وهي تتعلق بأمور وشؤون الدولة وتكون من خليفة إلى ابنه أو خليفة أو إلى عامة الناس يحث فيها عن أمور الحكم وشؤون الرعية والدعوة إلى استمرارية الحياة على نهج معين.

د- الوصية الأدبية: وتكون من نصيب الأدباء والكتاب والشعراء حول قضايا وظواهر أدبية، حيث قدموا حضارة تجاربهم وخلاصة خبراتهم ،خاصة الوصايا الشعرية منها وصايا الإمام علي -رضي الله عنه -والشافعي...

خصائص الوصية:

- التأثر بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.
- الاستشهاد بالحديث النبوي الشريف.

[1]- أحمد بن محمد المقري نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ج6، د ط، د ت، ص 315..

- الاستشهاد بالشعر.
- نقل تجربة وخبرة للآخرين.
- لغة الوصية تتنوع بين أسلوب النداء والاستفهام والنهي والأمر...
- الجنوح إلى الإيجاز بدل الإطناب من أجل التخفيف عن السامعين.
- جزالة العبارة ودقة اللفظ وإيصال المعاني.

المحاضرة الثامنة : **النثر الصوفي في الأدب العربي القديم**

لقد كان لإقبال الناس على الدنيا ردّة فعل ظاهرة ،انقبض على إثرها بعضهم عن الدنيا مرّة واحدة فحدث اسم (زاهد) ثم نشأ أقوام تعلّقوا بالزهد والتعبد فتخلوا عن الدنيا وانقطعوا إلى العبادة واتخذوا في ذلك طريقة تفردّوا بها وأخلاقًا تخلّقوا بها"[1] عرف أصحابها بالمتصوفة. ومن ثمة شاعت ظاهرة (التصوف) هذه.

أما سبب التسمية فقد كثرت فيه الأقاويل فادّعى بعضهم أنها نسبة إلى الصف الأول وقال آخرون أنها مأخوذة من رجل من العرب يسمّى (صوفة) انقطع للعبادة، بينما نسبها آخرون إلى أهل الصفة من فقراء الصحابة -رضوان الله عليهم- وقد رجّح الدكتور صابر طعيمة :أن أقرب نسبة اشتقت منها كلمة تصوف هي (الصّوف) على اعتبار أنه لباس الأنبياء .ومن سلك سبيل الزهد والتقشف من هؤلاء متبعًا في ذلك اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.[2]

وهكذا التصوف هو العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه والانفراد عن الخلق في الخلوة والعبادة[3]. ثم هو عند الصوفية أنفسهم" الطريق الذي يسلكه الزاهد ليصل إلى المحبة الإلهية والمعرفة الكاملة أللدنية التي عندها يفني خيال الوجود الشخصي في حقيقة الكائن الإلهي الشاملة لكلّ شيء.[4]

الفرق بين الزهد والتصوف:

-غاية الزاهد يترك الدنيا طمعًا في الآخرة، أما المتصوف فيهدف إلى الاتصال بالله في هذه الدنيا.

-الزاهد يرهب خوف الله وبطشه، والصوفي يطمئن إلى رحمته ولطفه وكرمه.

-ويوضح ابن الجوزي الفرق بينهما "التصوف مذهب معروف عند أصحابه لا يقتصد فيه على الزهد. بل له صفات وأخلاق يعرفها أربابه....[5] أما ابن عربي فيرى" أن الحياة الروحية تتضمن نوعين من المعرفة: أحدهما يتألف من الحقائق العقائدية وقواعد الأخلاق الدينية التي تبين للنفس معايير ما

---

[1]– جمال الدين أبو الفرج ابن الجوزي– تلبيس إبليس. مكتبة المتنبي. القاهرة دط .دت .ص161.

[2]– صابر طعيمة كتاب الصوفية معتقدًا وسلكًا. دار عالم الكتب الرياض ط2، 1985، ص 20– 21.

[3]–ابن خلدون المقدمة ص 467.

[4]– يوسف خليفة. حياة الشعر في الكوفة إلى نهاية القرن الثاني للهجرة. دار الكتاب العربي القاهرة مصر د ط 1967 ص 202.

[5]– ابن الجوزي. صفة الصفوة، تحقيق محمود الفاخوري ومحمد رواس تلعجي، دار الوعي. حلب 1969. ص 4.

يجب عليها اعتقاده وعمله لعبادة الله، وبلوغ السعادة القصوى (الزهد) والثاني يتألف من مجموع التجارب التي تصل إليها النفس بنور الإيمان تبعًا لمقاماتها في المعرفة (التصوف).

نشأته:

لقد ظهر التصوف مع عهد الرسول -صلى الله عليه وسلم- إذ يعتبر أول صوفي لأنه هو أول من أدخل الخلوة في غار حراء يتعبد فيه من ما علمه جبريل عليه السلام من وحي. فتلى ذلك كل من أبي بكر الصديق وعلى بن أبي طالب- رضي الله عنهما- في طرقهما الصوفية. ثم أخذ عنهما من التابعين أفكارهما وسميت الطريقتين: بالبكرية والعلوية[1].

وانتصرت الشيعة بعد مقتل الإمام علي انتشارًا واسعًا ،وذلك في العصر الأموي وذهب كثير منهم في التحزب الشيعي.

وظهر الأدب الصوفي في القرن الثاني الهجري واستمر إلى يومنا هذا الذي نعيش فيه، وكان في ظهوره الأول فن علمي جديد سمي "فن المناقب" ،وقد ذاعت كتب المناقب ذيوعًا كبيرًا وهي تتعرض لمناقب الأولياء والصالحين من الصوفية وكثر التأليف فيها وخاصة كثر في عهدي المماليك والأتراك"

ونجد في القرن الثاني بأكمله. والخلافة العباسية في بغداد حيث كان التصوف قائمًا بذاته ولذاته وينهض بتقاليده الفنية والفكرية ليوصلها في أذهان الناس،وكان التصوف لمحات دالة منها : رابعة العدوية (185هـ) والخليفة عمر بن عبد العزيز والحسن البصري، وأول من سمي بالمتصوف أبو هاشم الصوفي (150هـ) حسب كتاب" كشف الفنون".

وفي القرن الثالث والرابع ازدهر وانتشر انتشارًا واسعًا باعتباره أدب يعبر عن روح الإسلام ويستمد منه من معان فلسفية وحكم غير عربية .ومن تأثر بالثقافات الدخيلة المترجمة إلى العربية حينًا آخر راجع إلى ثقافات الصوفيين التي تمخضوا بعطورها وإلى روح المتصوف وحده ،وليس لذلك من أثر في الأدب الصوفي إلا اتساع المعاني أمامه وتناوله لكل الأفكار القديمة والطريقة التي تسوغ له ذوقه أن يتناولها[2]

فذي النون المصري كان صاحب ثقافة واسعة وإلمام بالفلسفة اليونانية خاصة الأفلاطونية الحديثة[3]. وكان أبو العتاهية يدعى العلم بفلسفة اليونان ،وكان قوم من أهل عصره ينسبونه إلى القول

---

[1]- علي الخطيب. اتجاهات الأدب الصوفي بين الحلاج وابن عربي، دار المعارف، القاهرة د ط 1404هـ.

[2]- نفسه ص 50.

[3]- عبد الحكيم حسان، التصوف في الشهر العربي، دار المعارف القاهرة ط2، دت .ص330.

بمذهب الفلاسفة ممن لا يؤمن بالبحث ،ويحتجون بأن شعره إنما صرف إلى ذكر الموت والفناء دون ذكر النشور والمعاني.[1]

وكان الحلاج (309ه) يعرف بالكيمياء والطب وذا معرفة واسعة بالمسيحية واليهودية[2] والجيلاني كان يستعين بالفلسفة اليونانية بين الحين والحين في كتابه"الإنسان الكامل"[3]. وكما كان يفعل ابن عربي في الأخذ من الفلسفة اليونانية أيضًا."[4]

ونجد أيضًا أبو تراب عسكر بن الحسين النخشبي (245ه) والحارث المحاسبي أبو سعد الخراز (227ه) وأبو نصر عبد الله بن علي سراج الطوسي (338ه). والشريف الرضى، وأبو حمزة الخراساني.

وفي القرنين الخامس والسادس اتجه الصوفي إلى الحب الإلهي ومدح الرسول -صلى الله عليه وسلم- والشوق إلى الأماكن المقدسة والدعوة إلى الفضائل الإسلامية، وظهر هنا الأدب الصوفي الفارسي ونبغ من الفرس (معروف البلغي والبستي) .وظهر في القرنين من العرب أبو حامد الغزالي (505ه) وأبو القاسم القشيري (465ه) والحصري والسهروردي (587ه) وعبد القادر الجيلاني وأبو عبد الله محمد بن أحمد الأندلسي القرشي وعبد الرحيم البرعي (550ه)

وفي القرن السابع نهض أدب التصوف ومثله ابن الفارض (632ه) وجلال الدين الرومي ومحي الدين ابن عربي (638ه) والبوصيري (695ه) وابن عطاء الله السكندري (707ه) وعفيف الدين التلمساني (610ه ، 695ه).

وفي القرن الثامن الهجري حتى اليوم نجد الشعراني (798ه، 973ه) والنابلسي.

أعراض النثر الصوفي:

أ-الرثاء:

أثرت عن الصوفية مراث بليغة رائعة تدل على روح ديني وذوق صوفي وإلهام عميق. وهناك مواقف للصوفية في الرثاء كثيرة ،ولم تر من اهتم بها من جمعوا المتخير في الرثاء.[5]

---

[1]– أبي الفرج الأصفهاني، الأغاني ج3، ص 29– 2.

[2]– علي الخطيب، اتجاهات الأدب الصوفي بين العلاج وابن عربي ص 50.

[3]– علي الخطيب، اتجاهات الأدب الصوفي بن الحلاج وابن عربي، ص50.

[4]– محمود خرج العقدة، الأدب الصوفي مكتبة الملك فهد الوطنية دط. 1386ه/ 1966 ص16.

[5]– علي الخطيب، اتجاهات الأدب الصوفي، بين الحلاج وابن عربي دار المعارف القاهرة ،دط، 1404ه ص 54.

ونجد ابن السماك يرث داوود بن نصر الطائي (165هـ- 782هـ) مبينا زهادته في الدنيا وأنه عاش وقسا على نفسه، وأخذها بالشدة، وكبح جماحها وحبسها عن متع الحياة ولذائذها كي يطيب عيشه في الآخرة ،نرد مقطعًا من المرثية :"...يا داوود ما كنت تشتهي من الماء بارده ولا من الطعام طيبه. ولا اللباس لينه بلى ولكن زهدت فيه لما بين يديك فما أصغر ما بذلت وما أحقر ما تركت في جنب ما أملت. فلما مت شهرك ربك بموتك، وألبسك رداء عملك وأكثر تتبعك، فلو رأيت من حضرك عرفت أن ربك قد أكرمك وشرفك،فلتتكلم اليوم عشيرتك بكل ألسنتها فقد أوضح ربك فضلها بك".[1]

وكتب أيضا ابن السماك إلى الرشيد يعزيه بابن له فيقول في مرثيته إليه:" أما بعد فإن استطعت أن يكون شكرك لله حين قبضه أكثر من شكرك له حين وهبه. فإنه حين قبضه أحرز لك هبته ولو سلم لم تسلم من فتنته ،أرأيت حزنك على ذهابه. وتلهفك لفراقه. أرضيت الدار لنفسك فترضاها لابنك أما هو فقد خلص من الكدر وبقيت أنت معلقًا بالخطر، وأعلم أن المصيبة مصيبتان أن جزعت. وإنما هي واحدة أن صبرت. فلا تجمع الأمرين على نفسك" فهذه المرثية هي حكمة بالغة في ثوب نصيحة مبينًا أن الدار فانية وما فيها إلا إغواء والآخر خير منها. ثم هي وصية في الأخير بالتحلي بالصبر.

ولعمر بن ذر في رثاء ابنه كلمة في قوله: "مات ذر بن أبى ذر الهمداني من بني مرهبة ،يا ذر شغلني الحزن عليك ،اللهم أنك وعدتني بالصبر على ذر وصلواتك ،اللهم ورحمتك وقد وهبت ما جعلت لي من أجر على فقد ذر لذر. فلا تعرفه قبيحًا من عمله، اللهم قد وهب له إساءته إلي فهب إساءته إلى نفسه. فإنك أجود وأكرم فلما هم أن ينصرف عنه التفت إلى قبره فقال: يا ذر قد انصرفنا وتركناك ولو أقمنا ما نفعناك."[2]

ب-الحكمة:

هي فن من فنون الأدب العربي جاءت في ثوب نصيحة متمخضة عن تجارب في الحياة، بيد أن الصوفيين صبغوها بصبغة روحية وألبسوها ثوبًا قشيبًا من الورع والزهد والتقوى .ونجد حكم العارف بالله ابن عطاء الله السكندري شهيرة معروفة ومنها نذكر:

-العطاء من الخلق حرمان والمنع من الله إحسان.

-متى أعطاك أشهدك بره، ومتى منعك أشهدك قهره، فهو في كل ذلك متعرف إليك. ومقبل بوجود لطفه عليك.

---

[1]– ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج2، ص 315– 316.

[2]– الجاحظ، البيان والتبيين. طبعه محي الدين الخطيب، مطبعة أبو الفتوح الأولية القاهرة، مصر، ج3، 1332هـ، ص75.

-إنما يؤلمك المنع لعدم فهمك عن الله فيه.

-رب عمرٍ اتسعت آماده، وقلت أمداده، ورب عمر قليلة آماده كثيرة أمداده.

-الفكرة سراج القلب، فإذا ذهبت فلا إضاءة له.

-من بورك له في عمره أدرك في يسير من الزمن من الله تعالى ما لا يدخل تحت دوائر العبارة، ولا تلحقه الإشارة.

جاءت حكم ابن عطاء الله السكندري رسوما واضحة لحال السالكين وطريق المتصوفين الزاهدين في الدنيا، والراغبين في الآخرة مبينة أنه من الواجب على العبد الشكر لله تعالى والتسليم له في كل حال حيث هو المدبر لشؤون الخلق أجمعين وليس للعبد دخل منها سوى أن يذعن ويسلم.[1]

ج-أدب الزهد في الدنيا:

كثر هذا اللون من الأدب في آداب الصوفية ومؤلفاتهم ونستطيع القول بأن هذا الأدب كان مقدمة وتمهيدا للتصوف الإسلامي حيث أن التصوف امتداد للزهد والإعراض عن مباهج الحياة والانصراف إلى الله تعالى بقلوبهم ونفوسهم.[2]

ويقول الإمام علي -رضي الله عنه-. "إنما الدنيا منتهى بصر الأعمى ،لا يبصر مما وراءها شيئًا والبصير ينفذها بصره، ويعلم أن الدار وراءها. فالبصير منها شاخص. والأعمى إليها شاخص، والبصير منها متردد، والأعمى بها متزود".[3]

ومن كلام الإمام علي -عليه السلام- في نعم صفة الدنيا:" ما أصف من دار أولها عناء وآخرها فناء. في خلالها حسب وفي حرامها عقاب، من استغنى فيها فتِنَ ومن افتقر فيها حزن ومن سعى لها فاتته ومن قعد عنها واتته، ومن أبصر بها بصرته، ومن أبصر إليها أعمته".[4]

وينطلق المتصوف في تعبده من الحب الإلهي فيقول الحلاج:" عن جوهر الذات الإلهية هو الحب، فإنّ (الحق) أحب ذاته قبل الخلق في وحدته المطلقة، وبالحب تجلّى لنفسه بنفسه فلمّا أحبّ أن يرى

---

[1]- علي الخطيب الشطوري، اتجاهات الأدب الصوفي بين الحلاج وابن عربي، ص55.

[2]- نفسه الصفحة نفسها.

[3]- علي بن أبي طالب، نهج البلاغة، شرح الإمام الشيخ محمد عبده، مكتبة الأندلس ج1، ط1- 1374هـ- 1954م- ص27.

[4]-المرجع نفسه، ص158.

ذلك الحبّ بعيدا عن الغيرية والثنوية في صورة مظاهره أخرج من العدم صورة من ذاته لها جميع صفاته وأسمائه فكانت هذه الصورة الإلهية آدام الذي تجلّى الحق فيه وبه"[1]

د-آدب النصائح والوصايا:

وهو فن من الفنون النثرية الصوفية امتاز بالقوة في الألفاظ والمعاني يهدف إلى توجيه النصائح لما ينفع الإنسان في دنياه وآخرته.

ومن الذين برزوا في هذا الفن الحسن البصري- رضي الله عنه- الذي كتب إلى الخليفة محمد بن عبد العزيز، رضي الله عنه. لما تولى الخلافة يبين له صفة الإمام العادل ينصحه ويوصي "...والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوارح تصلح الجوارح بصلاحه، وتفسده بفساده والإمام العادل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده يسمع كلام الله ويسمعهم وينظر إليه ويراهم، وينقاد على الله ويقودهم..."[2] تمتاز هذه الرسالة بجمال الأسلوب، وبلاغة المعنى ووضوحه وجزالة الألفاظ وقوتها ومتانة نسجها.

وكتب محي الدين بن عربي إلى السلطان الغالب بأمر الله ينصحه ويوجهه مذكرًا إياه بأنه صائر إلى ما صار إليه آباؤه وأجداده. يبين صفات الحاكم وعدم الاغترار بما مهد الله له من البلاد وسواها. ويقول:"...فاحذر أن أراك غدًا بين أئمة المسلمين من أخسر الناس أعمالاً الذين ظل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا ولا يكون شكرك لما أنعم الله عليك من استواء ملكك بكفران النعم...فأنصف المظلوم من الظالم... وتصل إلى الدار التي سافر إليها آباؤك وأجدادك..."[3]

ونجد نصيحة أخرى يوجهها أبو النصر الطائي إلى سليمان بن عبد المالك الخليفة الأموي فيقول:"سأطلق لساني بما خرست عنه الألسن تأدية لحق الله تعالى إنه قد اكتنفك رجال أساؤوا الاختيار لأنفسهم وابتاعوا دنياك بدينهم ورضوا بسخط ربهم. وخافوك في الله. ولم يخافوا الله فيك فهم حرب للآخرة وسلم للدنيا...فإن أعظم الناس عند الله غبنا من باع آخرته بدنيا غيره".[4]

---

[1]– ينكلسون ريتوك آلن في التصوف الإسلامي وتاريخه ترجمة أبو العلا عفيفي ،لجنة التأليف والترجمة . القاهرة،دط .1969 ص 85.

[2]– علي الخطيب اتجاهات الأدب الصوفي بين الحلاج ابن عربي ص 57.

[3]–نفسه ص 58.

[4]– نفسه 59.

هـ-المناجاة:

وهو الأدب الذي اخترعه الصوفية في مناجاة الله تبارك وتعالى وخطابه والتحدث إليه، وهو أدب يجذب العقول بجماله وبلاغته، وسحره، وروعته. كما أنه لون من ألوان النثر، نذكر من هذا النوع:

*قال ذو النون المصري:" إلهي عرفني عيوب نفسي، وأفضحها عندي لأتضرع إليك وابتهل بين يديك خاضعًا دليلاً في أن تغسلني منها، واجعلني من عبادك الذين شهدت أبدانهم وغابت قلوبهم تتجول في ملكوتك، وتتفكر في عجائب صنعك لترجع بفوائد معرفتك..."

*وقال معروف الكرخي في مناجاة رب العزة:" سيدي بك تقرب المقربون في الخلوات ولعظمك سبحت الحيتان في البحار الزافرات، ولجلال قدسك تصافقت الأمواج المتلاطمات .أنت الذي سجد لك سواد الليل وضوء النهار. والفلك الدوار. والبحر الزخار، والقمر النوار والنجم الزهار. وكل شيء عندك بمقدار لأنك العلي القهار."[1]

*وقال ابن عطاء الله السكندري في المناجاة:"إلهي أنا الفقير في تحناني، فكيف لا أكون فقيرًا في فقري. إلهي أنا الجاهل في علمي، فكيف لا أكون جهولا في جهلي، إلهي مني ما يليق بلؤمي ومنك ما يليق بكرمك. إلهي وصفت نفسك باللطف والرأفة بي قبل وجود ضعفي أفتمنعني منها بعد وجود ضعفي..."[2]

وللمناجاة ألوان في طلب المغفرة واعترافا بالعجز والحاجة إلى فيض رحمته وعظيم ثوابه منها:

و-الدعاء:

وهي الكلمات والجمل والدعوات التي يدعو بها العبد ربه طالبا رضاه والقرب منه. وتمتاز بمثانة الأسلوب وقوة الألفاظ ورصانة المعاني، نذكر ما ذكر عن أدعية النبي –صلى الله عليه سلم- منها:" اللهم اجعل في قلبي نورا، وفي بصري نورا، وفي سمعي نوار. وفي لساني نوار، اللهم اشرح لي صدري ويسر أمري، اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت. أعوذ بك من شر ما صنعت اغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت".[3]

وهناك للدعاء ألوان منها:

---

[1]– محمد عبد المنعم خفاجي، دراسات في الأدب الوفي، دار غريب، د ط، 1905– ص 137–138.

[2]– نفسه، ص 138–139.

[3]– البخاري ج3، ص 67

ي-الاستعاذة:

وهي أدعية تبتدئ بكلمة (أعوذ) ومنها قول المصطفى -صلى الله عليه وسلم-:" اللهم إني أعوذ بك من الكفر والدين والفقر، وأعوذ بك من عذاب جهنم وأعوذ بك من فتنة الدجال". " اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك ومن تحول عافيتك ومن فجأة نقمتك. ومن جميع سخطك".[1]

ر_ الاستغفار:

وهي تبتدأ (أستغفر الله) منها أدعية زين العابدين بن الحسين عليهما السلام منها:" اللهم بك قلبي ولساني. وبك نجائي وأماني وأنت العالم بسري وأعلاني. فأمت قلبي عن البغضاء. وأصمت لساني عن الفحشاء. وأخلص سريرتي وعلانيتي من علائق الأهواء. واكفني بأمانك عواقب الضراء وأجعل سري معقودا على مراقبتك وإعلاني موافقًا لطاعتك. وهب لي جسمًا روحانيًا وقلبا سماويا وهمة متصلة بك. ويقينًا صادقًا في حبكّ.[2]

ز_- التسبيح:

تبدأ عادة بلفظ يدل على التسبيح والتنزيه يقول السهروردي في دعاء له: "سبحانك ما عبدناك حق عبادتك يا من لا يشغله سمع عن سمع ،سبحانك إنك أنت المتجلي بنورك لعبادك في أطباق السموات".

خصائص النثر الصوفي:

- قوة العاطفة وصدقها اتجاه الحب الإلهي
- الإيمان المطلق بالله وبالإنسان الذي استعز بعزة الله.
- بلاغة وروعة وجلالة النثر الصوفي وسحره وشدة تأثره على النفوس بما اشتمل عليه من حكمة وصدق وحب وجمال.
- سمة وضوح أساليبه وجمال ألفاظه وسهولة التراكيب.
- الإطناب في الغالب لبعض المتصوفين منهم الغزالي.
- الاعتماد على الرمز الذي يكثر فيه الإشارات والتلويح.
- الإفراط في الكنايات والاستعارات والسجع والطباق بصفة خاصة.

---

[1]– الغزالي أبو حامد، إحياء علوم الدين، دار بن حزم القاهرة، 1963،د ط، ص 331.

[2]– ابن خلكان وفيات الأعيان وأنباء الزمان، دار صادر بيروت، ج1، 1972، ص 578.

الفهرس

أ-الشعر

1-الشعر في العصر الجاهلي

2-شعر الصعاليك

3-الشعر في العص الإسلامي

4-الشعر في العصر الأموي

5-شعر النقائض

6الشعر في العصر العباسي

7-الشعر في العصر الأندلسي

ب-النثر

1-النثر العربي القديم

2الخطابة في الأدب العربي القديم

3-الأمثال والحكم في الأدب العربي القديم

4-الرسالة في الأدب العربي القديم

5-السرد العربي القديم-المقامات-

6-أدب الرحلة في المشرق والمغرب والأندلس

7-الوصية في الأدب العربي القديم

8-النثر الصوفي في المشرق والمغرب والأندلس

المحاضرة التاسعة : فن الوصية في الأدب العربي القديم

الوصية في اللغة هي العهد والوعد والميثاق[1]، وهي من الوصل أو الاتصال ويتضمن هذا الاتصال المعنيين المادي والمعنوي. وهي على أية حال محاولة للاستمرار فهو ضد الانقطاع ،فهو اصطلاحًا أيضًا ايصال الخبرة ونقل التجربة ومد جسور المعرفة التي تتناقلها البشرية لتحقيق الخير لهم بشكل عام أيًا كان ميدان تلك الوصية. فالوصية تضمن اتصال السلوك السليم والرأي السديد عن طريق نقله للأجيال وعليه فالوصية تلتبس بالنصح والإرشاد والوعظ والحكمة.[2]

لقد عرف العرب الوصية في الجاهلية وقبل الجاهلية وهذا ما أدى إلى معرفتهم الكتب السماوية السابقة وتناقلوا مضامينها، ثم أن الشعوب والحضارات كانت تحتفل بالحكمة والحكماء وأصحاب الرأي والكهنة والسحرة.....فكانوا يلجئون إليهم أن استعصى عليهم أمر ما، وأولئك النفر كانوا يقدمون النصائح والوصايا للناس.

فكان الملوك والأمراء يوصون رعاياهم .وكان مماليك دول أوصوا حكامها أبناءهم بسلسلة من الوصايا. ومن تلك الوصايا وصية قحطان بن هود لأبنائه قبل موته.[3]

فكانت الوصايا في العصر الجاهلي متعددة تنتظم في شتى الأغراض من شؤون الحياة (الاقتصادية، السياسية، الاجتماعية، الدينية والأخلاقية...).

فنجد وصايا أكثم بن صيفي الذي غاض في شتى مجالات الوصية مثل وصيته لكسرى ملك الروم حول الحكم والحياة ،حيث أن أكثم بن صيفي في كتابه وضع بابًا أسماه باب" الوصايا" كانت عبارة عن جمل قصيرة وحكم وأمثالٍ.

كما نجد وصايا لآخرين غير أكثم بن صيفي منهم قس بن ساعدة الأيادي الذي كان خطيب قومه وحكيمًا وحليمًا وشاعرًا. وأيضا هناك عدد من الوصايا التي صدرت عن الآباء لأبنائهم قبيل وفاتهم فذاك سعد العشيرة يوصي أبناءه عن مكارم الأخلاق. وأيضا وصية مالك بن المنذر البجلي لأبنائه ووصية عمرو بن الغوث بن طيء لولده، ووصية قيس بن يكرب لولده.

كذلك كان للنساء نصيب في الوصية مثلما نرى وصية أمامه بنت الحارث لابنتها يوم حملت إلى زوجها الحارث بن عمر[4].

لَمَّـــا احْتُضِـــرَ ذو الإِصْـــبَعِ دعـــا ابنَـــه أُسَـــيْدًا، فقـــال لـــه:

يا بُنَيَّ، إنَّ أباكَ قد فَنِيَ وهو حَيٌّ، وعاشَ حتى سَئِمَ العيشَ، وإنّي مُوْصِيكَ بِمَا إنْ حَفِظْتَهُ بَلَغْتَ في قومِكَ ما بَلَغْتُهُ، فاحْفَظْ

---

[1]- ابن منظور لسان الغرب م11، ص 412.

[2]- المفضل الضبي، المفضليات-تحقيق احمد شاكر هارون ،دار المعارف. القاهرة ط3، د.ت 384.

[3]- دعبل بن علي الخزاعي- وصايا الملوك وأبناء الملوك من ولد قحطان بن هود، تحقيق نزار إباضة. دار صادر بيروت ط1 1997 ص177.

[4]- أبو حاتم السجستاني، المعمرون والوصايا، تحقيق عبد المنعم عامر، دار أحياء الكتب العربية القاهرة، د ط، 1971، ص 122-125-123.

عَنِّـــــــــــــــــي:

أَلِنْ جَانِبَكَ لِقَومِكَ يُحِبُّوكَ، وتَوَاضَعْ لهم يَرْفَعُوكَ، وابْسُطْ لهم وَجْهَك يُطِيْعُوكَ، ولا تَسْتَأْثِرْ عليهم بِشَيءٍ يُسَوِّدُوكَ، وأَكْرِمْ صِغَارَهم كما تُكْرِمُ كِبَارَهم يُكْرِمْكَ كِبَارُهم، ويَكْبُرُ على مَوَدَّتِك صِغَارُهُم، واسْمَحْ بِمَالِكَ، وَاحْمِ حَرِيْمَكَ، وأَعْزِزْ جَارَكَ، وأَعِنْ مَن اسْتَعَانَ بكَ، وَأَكْرِمْ ضَيْفَكَ، وأَسْرِعِ النَّهْضَةَ في الصَّرِيخِ؛ فإِنَّ لكَ أَجَلاً لا يَعْدُوكَ، وصُنْ وَجْهَكَ عن مَسْأَلَةِ أَحَدٍ شَيْئًا فَبِذَلِكَ يَتِمُّ سُؤْدَدُكَ.

ثم إن الشعراء أوصوا من فيض تجاربهم ونصحوا لأقوامهم وأصدقائهم وأهليهم فذاك لقمان بن يعمر الأيادي في قصيدة لقومه يوصيهم ويحذرهم من الغفلة من العدو و التجند للحرب.

وإذا كانت الوصية في العصر الجاهلي قد تبوأت منزلة مرموقة، فإنها قد بلغت أوجها وقفزت إلى الصدارة ببزوغ فجر الإسلام وازدهرت وتطورت حسب موضوعاتها: الإيخاء والمساواة والعدل وعلاقة العبد بربه والعلاقات الزوجية والمثل العليا وصلاح الدنيا والآخرة...

وأيضا نجد وصايا ما جاءت في نسيج الخطب وبعضها جاء مباشرًا في حين جاء بعضها الآخر غير مباشر يقدم في سياق القصص القرآني وضرب المثال فكانت وصايا النبي -صلى الله عليه وسلم -لعموم المسلمين وجمهور الصحابة ورسله إلى الملوك والأقوام الأخرى وأوصى قادة السرايا، وأوصى المسلمين منظمًا بذلك شؤون حياتهم. وكان النبي-صلى الله عليه وسلم- يقرأ عن قومه من الوحي ما نزل في باب الوصية مصداقًا لقوله تعالى: "يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين"[1] وأيضًا: "وبعهد الله أوفوا. ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون " وقوله"ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا"وفي الحديث الشريف "استوصوا بالنساء خيرًا". فكتب النبي-صلى الله عيه وسلم- إلى المهاجرين والأنصار و صية في الأخلاق وكذلك خطبة الوداع التي جمعت في طياتها عدّة وصايا للمسلمين. ونجد أيضًا نصائحه عليه الصلاة والسلام المرسلة إلى الأقوام ما أوصى به عيّاش بن أبي ربيعة[2] لما بعثه إلى بني عبد كلال وعدة وصايا من هذا القبيل.

وقد سار الخلفاء والصحابة -رضوان الله عليهم- على نهج النبي -صلى الله عليه وسلم- فهذا أبا بكر الصديق - رضي الله عنه- يوصي الصحابة في غير موضع موضحًا لهم سبل الرشد ،ومن ذلك كتابه إلى الأمراء في حروب الردّة[3]. وكذلك وصيته إلى الخليفة عمر بن الخطاب –رضي الله عنه- لما حضره الموت يستخلفه في خليفته ويذكره بتقوى الله والعمل الصالح، وذكر الفرائض والحق والباطل ويوم القيامة...كما أوصى عمر بن

[1]– نفسه، ص 122.

[2]– ابن عبد ربه، العقد الفريد، تحقيق التونجي، دار صادر، بيروت، مج1، ط1، 2001، ص 43.

[3]– الشيخ محمد الخضري، إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء المكتبة التجارية الكبرى، مصر، د.ط، د ت، ص 23، 24.، ص 122.

الخطاب -رضي الله عنه- قبل موته مخاطبا ابنه عبد الله بن عمر يريد منه أن يصل وصيته إلى الخليفة بعده. فيقول:[1]

أوصيك بتقوى الله وحده لا شريك له، وأوصيك بالمهاجرين الأوّلين خيرًا؛ أن تعرف لهم سابقتهم، وأوصيك بالأنصار خيرًا، فاقبل من محسنهم، وتجاوز عن مسيئهم، وأوصيك بأهل الأمصار خيرًا، فإنهم ردء العدوّ، وجباة الفيء، لا تحمل منهم إلا عن فضلٍ منهم، وأوصيك بأهل البادية خيرًا، فإنهم أصل العرب، ومادّة الإسلام، وأن يؤخذ من حواشي أموالهم فَيُردَّ على فقرائهم، وأوصيك بأهل الذمّة خيرًا، أن تقاتل مَنْ وراءهم ولا تكلِّفهم فوق طاقتهم إذا أدّوا ما عليهم للمؤمنين طوعًا، أو عن يدٍ وهم صاغرون، وأوصيك بتقوى الله، والحذر منه، ومخافة مقته أن يطَّلع منك على ريبة، وأوصيك أن تخشى الله في الناس، ولا تخشى الناس في الله، وأوصيك بالعدل في الرعية، والتفرّغ لحوائجهم وثغورك، ولا تؤثر غنيهم على فقيرهم، فإن في ذلك بإذن الله سلامة قلبك، وحطًّا لوزرك، وخيرًا في عاقبة أمرك حتى تفضي في ذلك إلى من يعرف سريرتك، ويحول بينك وبين قلبك، وآمرك أن تشتدّ في أمر الله، وفي حدوده ومعاصيه على قريب الناس، وبعيدهم، ثم لا تأخذك في أحدٍ الرأفة، حتى تنتهك منه مثل جرمه، واجعل الناس عندك سواء، لا تبال على من وجب الحقُّ، ولا تأخذك في الله لومة لائم.

وإياك والمحاباة فيما ولّاك الله ممَّا أفاء على المؤمنين، فتجور، وتظلم، وتحرك نفسك من ذلك ما قد وسعه الله عليك، وقد أصبحت بمنزلة من منازل الدنيا والآخرة، فإن اقترفت لدنياك عدلًا، وعفّة عمَّا بسط لك؛ اقترفت به إيمانًا، ورضوانًا، وإن غلبك الهوى؛ اقترفت به غضب الله، وأوصيك ألا ترخِّص لنفسك، ولا لغيرك في ظلم أهل الذمّة وقد أوصيتك، وخصصتك، ونصحتك فابتغِ بذلك وجه الله، والدار الآخرة، واخترت من دلالتك ما كنت دالًّا عليه نفسي، وولدي، فإن عملت بالذي وعظتك، وانتهيت إلى الذي أمرتك؛ أخذت منه نصيبًا وافرًا، وحظًّا وافيًا، وإن لم تقبل ذلك، ولم يهمّك، ولم تترك معاظم الأمور عند الذي يرضى به الله عنك؛ يكن ذلك انتقاصًا، ورأيك فيه مدخولًا لأن الأهواء مشتركة، ورأس الخطيئة إبليس داع إلى كل مهلكة، وقد أضلَّ القرون السالفة قبلك، فأوردهم النار، وبئس الورد المورود! وبئس الثمن أن يكون حظّ امرئ موالاة لعدوّ الله، الداعي إلى معاصيه.
ثمَّ اركب الحق، وخُضْ إليه الغمرات، وكن واعظًا لنفسك، وأناشدك الله إلا ترحَّمت على جماعة المسلمين، وأجللت كبيرهم، ورحمت صغيرهم، ووقَّرت عالمهم، ولا تضربهم؛ فيذلُّوا، ولا تستأثر عليهم بالفيء، فتغضبهم، ولا تحرمهم عطاياهم عند محلّها، فتفقرهم، ولا تجمِّرهم في البعوث، فينقطع نسلهم، ولا تجعل المال دولة بين الأغنياء منهم، ولا تغلق بابك دونهم، فيأكل قويُّهم ضعيفهم، هذه وصيَّتي إليك، وأشهد الله عليك، وأقرأ عليك السلام.

وقد سار خلفاء بني أمية على نهج الخلفاء الراشدين في الوصايا. فمعاوية بن أبي سفيان أوصى إبنه يزيد[2] لما شعر بدنو أجله فكانت وصيته سياسية حول الحكم فذكر حول من يتنازع معه حول الخلافة من الحسين بن علي وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير.فيقول:
يا **يزيد** أما إذا لم تصب الرشد فإني قد وطأت لك الأمور، وذللت لك أهل العز، وأخضعت لك رقاب العرب، وكفيتك الرحلة والترحال، وجمعت لك ما لم يجمعه واحد، وإني لست أخاف أن ينازعك في هذا الأمر إلا ثلاثة نفر: الحسين ابن علي، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير.

[1] – المبرد أبو العباس، التعازي والمراثي والمواعظ والوصايا، تحقيق ابراهيم الجمل، مراجعة محمود سالم نهضة مصر للطباعة والنشر ، د ط. دت، ص 155
[2] – نفسه، ص 139-140.

وقد أوصى عبد المالك بن مروان وعمر بن عبد العزيز وكثير من الخلفاء بني أمية وأمرائهم وولاتهم[1]، وأوصى الأدباء والكتاب والشعراء وحملوا للناس من خبراتهم في أمور الحياة فابن قتيبة يوصي العلماء والأدباء "إذا أردت أن تكون عالمًا فاطلب فنًا واحدًا وإذا أردت أن تكون أديبًا فتفنن في العلوم"[2]

أيضا في العصر العباسي سار الولاّة والخلفاء والكتاب والأدباء فيه على نحو الأمويين في وصاياهم مثل ما نجده في وصايا الخليفة المنصور إلى ابنه المهدي[3] حول موضوع الخلافة بعده والسلطة قبل موته وهي وصية سياسية ينقل الخليفة لابنه خلاصة تجارية في شؤون الحكم وسياسة الرغبة، ويوصيه بكيفية التعامل مع الرعية والعمال ثم يذكره بعلاقته مع الله عزّ وجلّ والتعفف في أموال الخزينة والإنصاف في أحكام الشريعة ثم ذكّره بأحقية توليه الخلافة بعده.

قال المنصور لابنه المهدِيّ:

يا بُنَيّ، لا تُبْرِمْ أمرًا حتى تُفَكِّرَ فيه؛ فإنَّ فكرةَ العاقلِ مِرْآتُهُ تُرِيْهِ حَسَنَاتِهِ وسَيِّئَاتِهِ، واعلمْ أنَّ الخليفةَ لا يُصْلِحُه إلا التَّقْوى، والسلطانَ لا يُصْلِحُه إلاَّ الطاعةُ، والرَّعيةَ لا يُصْلِحُها إلاَّ العدلُ. وأولى الناسِ بالعفوِ أَقْدَرُهم على العقوبةِ، وأنقصُ الناسِ عقلاً مَن ظَلَمَ مَن هو دونَه.

وكان للشعراء والأدباء والنساك والوعاظ جملة من الوصايا والمواعظ تناولت جوانب الحياة من دينية وسياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية... حيث برز من الشعراء أبي تمام وأبي العتاهية والمتنبي.

أما في العصر الأندلسي سارت الوصية على نظيرتها في المشرق العربي حيث جاءت متنوعة بشكل عام لتنقل عموم الخبرة الشخصية والعامة التي تحصلت لدى الموصي إلى الآخرين. فشرع الوصي يستنفر طاقاته اللغوية وإمكاناته المعرفية لينتج نصوصًا وعظية في المقام الأوّل أدبية في المقام . فكان من النوع الأوّل ديني الذي ينظم العلاقات بين العبد وخالقه وهو ينهل (النوع) من القرآن الكريم والسنة النبوية مرغبًا مرهبًا. وكان منها الاجتماعي الذي ينظم العلاقات الإنسانية العامة والخاصة. والتعاطي في شؤون الحياة ،وكان منها السياسي الذي ينظم علاقات السلاطين أولى الأمر برعيتهم من جانب وينظم علاقات الرعية بهم من جانب آخر ، على أن الوصية تتسع لأكثر من ذلك. إذ تأتي على الحديث في كثير من الموضوعات التربوية والأدبية والقضائية العامة والخاصة.

ففي الأندلس كثرت وصايا الشعراء على شكل مقطوعات أو قصائد كانت تنظم في غرض الوعظ والإرشاد وتوصي الناس بخلاصة تجربة الشاعر وخبرته، منهم عبد الكريم االقيسي وابن شُهيد الأندلسي وابن خفاجة ،ابن حمديس، ابن جبير، ابن هانئ الأندلسي، لسان الدين الخطيب... وكانت وصايا نثرية صادرة عن رجال

---

[1]- نفسه، ص 143-153.

[2]- نفسه، ص 359.

[3]- محمد بن جريرالطبري، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ج2، د ط، د ت، ص 344-345.

الدولة والحكام والأمراء منها وصية يوسف ابن تاشفين وأبي بكر بن القصيرة وابن سعد لسان الدين بن الخطيب... [1]

أوصى ابن شهيد الأندلسي صاحب «رسالة التوابع والزوابع» أن يكتب على قبره في لوح رخام: «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ» (قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ)، هذا قبر أحمد بن عبد الملك بن شهيد، المذنب، مات وهو يشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن الجنة حق، وأن النار حق، وأن البعث حق، والساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، مات في شهر كذا من عام كذا، ويكتب تحت هذا النثر، هذا النظم.«

أنواعها:

أ- الوصية الاجتماعية: هي تلك الوصايا التي تتحدث عن أدب الحياة العامة والتعامل مع الآخرين والأصدقاء والأعداء والتعامل مع النساء وفي مخالطة الناس ومعاشرتهم والاعتماد على النفس.

ب- الوصية الدينية: وتتمثل في الحث عن الأمور الدنيوية والوعظ والإرشاد والنصح والتذكير بأهوال القيامة والتذكير بالموت والآخرة ،ولها جانب أخلاقي في المعاملات والعبادات.

ج- الوصية السياسية: وهي تتعلق بأمور وشؤون الدولة وتكون من خليفة إلى ابنه أو خليفة أو إلى عامة الناس يحث فيها عن أمور الحكم وشؤون الرعية والدعوة إلى استمرارية الحياة على نهج معين.

د- الوصية الأدبية: وتكون من نصيب الأدباء والكتاب والشعراء حول قضايا وظواهر أدبية، حيث قدموا حضارة تجاربهم وخلاصة خبراتهم ،خاصة الوصايا الشعرية منها وصايا الإمام علي -رضي الله عنه - والشافعي...

خصائص الوصية:

- التأثر بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.
- الاستشهاد بالحديث النبوي الشريف.
- الاستشهاد بالشعر.
- نقل تجربة وخبرة للآخرين.
- لغة الوصية تتنوع بين أسلوب النداء والاستفهام والنهي والأمر...
- الجنوح إلى الإيجاز بدل الإطناب من أجل التخفيف عن السامعين.
- جزالة العبارة ودقة اللفظ وإيصال المعاني.

[1]– أحمد بن محمد المقري نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ج6، د ط، د ت، ص 315..

المحاضرة العاشرة: النثر الصوفي في الأدب العربي القديم

لقد كان لإقبال الناس على الدنيا ردّة فعل ظاهرة ،انقبض على إثرها بعضهم عن الدنيا مرّة واحدة فحدث اسم (زاهد) ثم نشأ أقوام تعلّقوا بالزهد والتعبد فتخلوا عن الدنيا وانقطعوا إلى العبادة واتخذوا في ذلك طريقة تفردّوا بها وأخلاقًا تخلّقوا بها"[1] عرف أصحابها بالمتصوفة. ومن ثمة شاعت ظاهرة (التصوف) هذه.

أما سبب التسمية فقد كثرت فيه الأقاويل فادّعى بعضهم أنها نسبة إلى الصف الأول وقال آخرون أنها مأخوذة من رجل من العرب يسمّى (صوفة) انقطع للعبادة، بينما نسبها آخرون إلى أهل الصفة من فقراء الصحابة -رضوان الله عليهم- وقد رجّح الدكتور صابر طعيمة :أن أقرب نسبة اشتقت منها كلمة تصوف هي (الصّوف) على اعتبار أنه لباس الأنبياء .ومن سلك سبيل الزهد والتقشف من هؤلاء متبعًا في ذلك اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.[2]

وهكذا التصوف هو العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه والانفراد عن الخلق في الخلوة والعبادة[3]. ثم هو عند الصوفية أنفسهم" الطريق الذي يسلكه الزاهد ليصل إلى المحبة الإلهية والمعرفة الكاملة أللدنية التي عندها يفني خيال الوجود الشخصي في حقيقة الكائن الإلهي الشاملة لكلّ شيء.[4]

الفرق بين الزهد والتصوف:

-غاية الزاهد يترك الدنيا طمعًا في الآخرة، أما المتصوف فيهدف إلى الاتصال بالله في هذه الدنيا.

-الزاهد يرهب خوف الله وبطشه، والصوفي يطمئن إلى رحمته ولطفه وكرمه.

---

[1]– جمال الدين أبو الفرج ابن الجوزي– تلبيس إبليس. مكتبة المتنبي. القاهرة دط .دت .ص161.

[2]– صابر طعيمة كتاب الصوفية معتقدًا وسلكًا. دار عالم الكتب الرياض ط2، 1985، ص 20– 21.

[3]–ابن خلدون المقدمة ص 467.

[4]– يوسف خليفة. حياة الشعر في الكوفة إلى نهاية القرن الثاني للهجرة. دار الكتاب العربي القاهرة مصر د ط 1967 ص 202.

-ويوضح ابن الجوزي الفرق بينهما "التصوف مذهب معروف عند أصحابه لا يقتصد فيه على الزهد. بل له صفات وأخلاق يعرفها أربابه....[1] أما ابن عربي فيرى" أن الحياة الروحية تتضمن نوعين من المعرفة: أحدهما يتألف من الحقائق العقائدية وقواعد الأخلاق الدينية التي تبين للنفس معايير ما يجب عليها اعتقاده وعمله لعبادة الله، وبلوغ السعادة القصوى (الزهد) والثاني يتألف من مجموع التجارب التي تصل إليها النفس بنور الإيمان تبعًا لمقاماتها في المعرفة (التصوف).

نشأته:

لقد ظهر التصوف مع عهد الرسول -صلى الله عليه وسلم- إذ يعتبر أول صوفي لأنه هو أول من أدخل الخلوة في غار حراء يتعبد فيه من ما علمه جبريل عليه السلام من وحي. فتلى ذلك كل من أبي بكر الصديق وعلى بن أبي طالب- رضي الله عنهما- في طرقهما الصوفية. ثم أخذ عنهما من التابعين أفكارهما وسميت الطريقتين: بالبكرية والعلوية[2].

وانتصرت الشيعة بعد مقتل الإمام علي انتشارًا واسعًا ،وذلك في العصر الأموي وذهب كثير منهم في التحزب الشيعي.

وظهر الأدب الصوفي في القرن الثاني الهجري واستمر إلى يومنا هذا الذي نعيش فيه، وكان في ظهوره الأول فن علمي جديد سمي "فن المناقب" ،وقد ذاعت كتب المناقب ذيوعًا كبيرًا وهي تتعرض لمناقب الأولياء والصالحين من الصوفية وكثر التأليف فيها وخاصة كثر في عهدي المماليك والأتراك"

ونجد في القرن الثاني بأكمله. والخلافة العباسية في بغداد حيث كان التصوف قائمًا بذاته ولذاته وينهض بتقاليده الفنية والفكرية ليوصلها في أذهان الناس،وكان التصوف لمحات دالة منها : رابعة العدوية (185هـ) والخليفة عمر بن عبد العزيز والحسن البصري، وأول من سمي بالمتصوف أبو هاشم الصوفي (150هـ) حسب كتاب" كشف الفنون".

وفي القرن الثالث والرابع ازدهر وانتشر انتشارًا واسعًا باعتباره أدب يعبر عن روح الإسلام ويستمد منه من معان فلسفية وحكم غير عربية .ومن تأثر بالثقافات الدخيلة المترجمة إلى العربية حينًا آخر راجع إلى ثقافات الصوفيين التي تمخضوا بعطورها وإلى روح المتصوف وحده ،وليس لذلك من أثر في الأدب الصوفي إلا اتساع المعاني أمامه وتناوله لكل الأفكار القديمة والطريقة التي تسوغ له ذوقه أن يتناولها[3]

---

[1]- ابن الجوزي. صفة الصفوة، تحقيق محمود الفاخوري ومحمد رواس تلعجي، دار الوعي. حلب 1969. ص 4.

[2]- علي الخطيب. اتجاهات الأدب الصوفي بين الحلاج وابن عربي، دار المعارف، القاهرة د ط 1404هـ.

[3]- نفسه ص 50.

فذي النون المصري كان صاحب ثقافة واسعة وإلمام بالفلسفة اليونانية خاصة الأفلاطونية الحديثة[1]. وكان أبو العتاهية يدعى العلم بفلسفة اليونان ،وكان قوم من أهل عصره ينسبونه إلى القول بمذهب الفلاسفة ممن لا يؤمن بالبحث ،ويحتجون بأن شعره إنما صرف إلى ذكر الموت والفناء دون ذكر النشور والمعاني.[2]

وكان الحلاج (309هـ) يعرف بالكيمياء والطب وذا معرفة واسعة بالمسيحية واليهودية[3] والجيلاني كان يستعين بالفلسفة اليونانية بين الحين والحين في كتابه"الإنسان الكامل"[4]. وكما كان يفعل ابن عربي في الأخذ من الفلسفة اليونانية أيضًا."[5]

ونجد أيضًا أبو تراب عسكر بن الحسين النخشبي (245هـ) والحارث المحاسبي أبو سعد الخراز (227هـ) وأبو نصر عبد الله بن علي سراج الطوسي (338هـ). والشريف الرضى، وأبو حمزة الخراساني.

وفي القرنين الخامس والسادس اتجه الصوفي إلى الحب الإلهي ومدح الرسول -صلى الله عليه وسلم- والشوق إلى الأماكن المقدسة والدعوة إلى الفضائل الإسلامية، وظهر هنا الأدب الصوفي الفارسي ونبغ من الفرس (معروف البلغي والبستي) .وظهر في القرنين من العرب أبو حامد الغزالي (505هـ) وأبو القاسم القشيري (465هـ) والحصري والسهروردي (587هـ) وعبد القادر الجيلاني وأبو عبد الله محمد بن أحمد الأندلسي القرشي وعبد الرحيم البرعي (550هـ)

وفي القرن السابع نهض أدب التصوف ومثله ابن الفارض (632هـ) وجلال الدين الرومي ومحي الدين ابن عربي (638هـ) والبوصيري (695هـ) وابن عطاء الله السكندري (707هـ) وعفيف الدين التلمساني (610هـ ، 695هـ).

وفي القرن الثامن الهجري حتى اليوم نجد الشعراني (798هـ، 973هـ) والنابلسي.

أعراض النثر الصوفي:

أ-الرثاء:

أثرت عن الصوفية مراث بليغة رائعة تدل على روح ديني وذوق صوفي وإلهام عميق. وهناك مواقف للصوفية في الرثاء كثيرة ،ولم تر من اهتم بها من جمعوا المتخير في الرثاء.[6]

---

[1]- عبد الحكيم حسان، التصوف في الشهر العربي، دار المعارف القاهرة ط2، دت .ص330.

[2]- أبي الفرج الأصفهاني، الأغاني ج3، ص 29- 2.

[3]- علي الخطيب، اتجاهات الأدب الصوفي بين العلاج وابن عربي ص 50.

[4]- علي الخطيب، اتجاهات الأدب الصوفي بن الحلاج وابن عربي، ص50.

[5]- محمود خرج العقدة، الأدب الصوفي مكتبة الملك فهد الوطنية دط. 1386هـ/ 1966 ص16.

[6]- علي الخطيب، اتجاهات الأدب الصوفي، بين الحلاج وابن عربي دار المعارف القاهرة ،دط، 1404هـ ص 54.

ونجد ابن السماك يرث داوود بن نصر الطائي (165هـ- 782هـ) مبينا زهادته في الدنيا وأنه عاش وقسا على نفسه، وأخذها بالشدة، وكبح جماحها وحبسها عن متع الحياة ولذائذها كي يطيب عيشه في الآخرة ،نرد مقطعًا من المرثية :"...يا داوود ما كنت تشتهي من الماء بارده ولا من الطعام طيبه. ولا اللباس لينه بلى ولكن زهدت فيه لما بين يديك فما أصغر ما بذلت وما أحقر ما تركت في جنب ما أملت. فلما مت شهرك ربك بموتك، وألبسك رداء عملك وأكثر تتبعك، فلو رأيت من حضرك عرفت أن ربك قد أكرمك وشرفك،فلتتكلم اليوم عشيرتك بكل ألسنتها فقد أوضح ربك فضلها بك".[1]

وكتب أيضا ابن السماك إلى الرشيد يعزيه بابن له فيقول في مرثيته إليه:" أما بعد فإن استطعت أن يكون شكرك لله حين قبضه أكثر من شكرك له حين وهبه. فإنه حين قبضه أحرز لك هبته ولو سلم لم تسلم من فتنته ،أرأيت حزنك على ذهابه. وتلهفك لفراقه. أرضيت الدار لنفسك فترضاها لابنك أما هو فقد خلص من الكدر وبقيت أنت معلقًا بالخطر، وأعلم أن المصيبة مصيبتان أن جزعت. وإنما هي واحدة أن صبرت. فلا تجمع الأمرين على نفسك" فهذه المرثية هي حكمة بالغة في ثوب نصيحة مبينًا أن الدار فانية وما فيها إلا إغواء والآخر خير منها. ثم هي وصية في الأخير بالتحلي بالصبر.

ولعمر بن ذر في رثاء ابنه كلمة في قوله: "مات ذر بن أبى ذر الهمداني من بني مرهبة ،يا ذر شغلني الحزن عليك ،اللهم أنك وعدتني بالصبر على ذر وصلواتك ،اللهم ورحمتك وقد وهبت ما جعلت لي من أجر على فقد ذر لذر. فلا تعرفه قبيحًا من عمله، اللهم قد وهب له إساءته إلي فهب إساءته إلى نفسه. فإنك أجود وأكرم فلما هم أن ينصرف عنه التفت إلى قبره فقال: يا ذر قد انصرفنا وتركناك ولو أقمنا ما نفعناك."[2]

ب-الحكمة:

هي فن من فنون الأدب العربي جاءت في ثوب نصيحة متمخضة عن تجارب في الحياة، بيد أن الصوفيين صبغوها بصبغة روحية وألبسوها ثوبًا قشبيًا من الورع والزهد والتقوى .ونجد حكم العارف بالله ابن عطاء الله السكندري شهيرة معروفة ومنها نذكر:

-العطاء من الخلق حرمان والمنع من الله إحسان.

-متى أعطاك أشهدك بره، ومتى منعك أشهدك قهره، فهو في كل ذلك متعرف إليك. ومقبل بوجود لطفه عليك.

-إنما يؤلمك المنع لعدم فهمك عن الله فيه.

-رب عمرٍ اتسعت آماده، وقلت أمداده، ورب عمر قليلة آماده كثيرة أمداده.

---

[1]- ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج2، ص 315- 316.

[2]- الجاحظ، البيان والتبيين. طبعه محي الدين الخطيب، مطبعة أبو الفتوح الأولية القاهرة، مصر، ج3، 1332هـ، ص75.

-الفكرة سراج القلب، فإذا ذهبت فلا إضاءة له.

-من بورك له في عمره أدرك في يسير من الزمن من الله تعالى ما لا يدخل تحت دوائر العبارة، ولا تلحقه الإشارة.

جاءت حكم ابن عطاء الله السكندري رسوما واضحة لحال السالكين وطريق المتصوفين الزاهدين في الدنيا، والراغبين في الآخرة مبينة أنه من الواجب على العبد الشكر لله تعالى والتسليم له في كل حال حيث هو المدبر لشؤون الخلق أجمعين وليس للعبد دخل منها سوى أن يذعن ويسلم.[1]

ج-أدب الزهد في الدنيا:

كثر هذا اللون من الأدب في آداب الصوفية ومؤلفاتهم ونستطيع القول بأن هذا الأدب كان مقدمة وتمهيدا للتصوف الإسلامي حيث أن التصوف امتداد للزهد والإعراض عن مباهج الحياة والانصراف إلى الله تعالى بقلوبهم ونفوسهم.[2]

ويقول الإمام علي -رضي الله عنه-. "إنما الدنيا منتهى بصر الأعمى ،لا يبصر مما وراءها شيئًا والبصير ينفذها بصره، ويعلم أن الدار وراءها. فالبصير منها شاخص. والأعمى إليها شاخص، والبصير منها متردد، والأعمى بها متزود".[3]

ومن كلام الإمام علي -عليه السلام- في نعم صفة الدنيا:" ما أصف من دار أولها عناء وآخرها فناء. في خلالها حسب وفي حرامها عقاب، من استغنى فيها فتِنَ ومن افتقر فيها حزن ومن سعى لها فاتته ومن قعد عنها واتته، ومن أبصر بها بصرته، ومن أبصر إليها أعمته".[4]

وينطلق المتصوف في تعبده من الحب الإلهي فيقول الحلاج:" عن جوهر الذات الإلهية هو الحب، فإنّ (الحق) أحب ذاته قبل الخلق في وحدته المطلقة، وبالحب تجلّى لنفسه بنفسه فلمّا أحبّ أن يرى ذلك الحبّ بعيدا عن الغيرية والثنوية في صورة مظاهره أخرج من العدم صورة من ذاته لها جميع صفاته وأسمائه فكانت هذه الصورة الإلهية آدام الذي تجلّى الحق فيه وبه"[5]

د-آدب النصائح والوصايا:

وهو فن من الفنون النثرية الصوفية امتاز بالقوة في الألفاظ والمعاني يهدف إلى توجيه النصائح لما ينفع الإنسان في دنياه وآخرته.

---

[1]- علي الخطيب الشطوري، اتجاهات الأدب الصوفي بين الحلاج وابن عربي، ص55.

[2]- نفسه الصفحة نفسها.

[3]- علي بن أبي طالب، نهج البلاغة، شرح الإمام الشيخ محمد عبده، مكتبة الأندلس ج1، ط1- 1374هـ- 1954م- ص27.

[4]-المرجع نفسه، ص158.

[5]- ينكلسون ريتوك آلن في التصوف الإسلامي وتاريخه ترجمة أبو العلا عفيفي ،لجنة التأليف والترجمة . القاهرة،دط .1969 ص 85.

ومن الذين برزوا في هذا الفن الحسن البصري- رضي الله عنه- الذي كتب إلى الخليفة محمد بن عبد العزيز، رضي الله عنه. لما تولى الخلافة يبين له صفة الإمام العادل ينصحه ويوصي "...والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوارح تصلح الجوارح بصلاحه، وتفسده بفساده والإمام العادل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده يسمع كلام الله ويسمعهم وينظر إليه ويراهم، وينقاد على الله ويقودهم..."[1] تمتاز هذه الرسالة بجمال الأسلوب، وبلاغة المعنى ووضوحه وجزالة الألفاظ وقوتها ومتانة نسجها.

وكتب محي الدين بن عربي إلى السلطان الغالب بأمر الله ينصحه ويوجهه مذكرًا إياه بأنه صائر إلى ما صار إليه آباؤه وأجداده. يبين صفات الحاكم وعدم الاغترار بما مهد الله له من البلاد وسواها. ويقول:"...فاحذر أن أراك غدًا بين أئمة المسلمين من أخسر الناس أعمالاً الذين ظل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا ولا يكون شكرك لما أنعم الله عليك من استواء ملكك بكفران النعم...فأنصف المظلوم من الظالم... وتصل إلى الدار التي سافر إليها آباؤك وأجدادك..."[2]

ونجد نصيحة أخرى يوجهها أبو النصر الطائي إلى سليمان بن عبد المالك الخليفة الأموي فيقول:"سأطلق لساني بما خرست عنه الألسن تأدية لحق الله تعالى إنه قد اكتنفك رجال أساؤوا الاختيار لأنفسهم وابتاعوا دنياك بدينهم ورضوا بسخط ربهم. وخافوك في الله. ولم يخافوا الله فيك فهم حرب للآخرة وسلم للدنيا...فإن أعظم الناس عند الله غبنا من باع آخرته بدنيا غيره".[3]

هـ-المناجاة:

وهو الأدب الذي اخترعه الصوفية في مناجاة الله تبارك وتعالى وخطابه والتحدث إليه، وهو أدب يجذب العقول بجماله وبلاغته، وسحره، وروعته. كما أنه لون من ألوان النثر، نذكر من هذا النوع:

*قال ذو النون المصري:" إلهي عرفني عيوب نفسي، وأفضحها عندي لأتضرع إليك وابتهل بين يديك خاضعًا دليلاً في أن تغسلني منها، واجعلني من عبادك الذين شهدت أبدانهم وغابت قلوبهم تتجول في ملكوتك، وتتفكر في عجائب صنعك لترجع بفوائد معرفتك..."

*وقال معروف الكرخي في مناجاة رب العزة:" سيدي بك تقرب المقربون في الخلوات ولعظمك سبحت الحيتان في البحار الزافرات، ولجلال قدسك تصافقت الأمواج المتلاطمات .أنت الذي سجد لك سواد الليل وضوء النهار. والفلك الدوار. والبحر الزخار، والقمر النوار والنجم الزهار. وكل شيء عندك بمقدار لأنك العلي القهار."[4]

---

[1]- علي الخطيب اتجاهات الأدب الصوفي بين الحلاج ابن عربي ص 57.

[2]-نفسه ص 58.

[3]- نفسه 59.

[4]- محمد عبد المنعم خفاجي، دراسات في الأدب الوفي، دار غريب، د ط، 1905- ص 137-138.

*وقال ابن عطاء الله السكندري في المناجاة:"إلهي أنا الفقير في تحناني، فكيف لا أكون فقيرًا في فقري. إلهي أنا الجاهل في علمي، فكيف لا أكون جهولا في جهلي، إلهي مني ما يليق بلؤمي ومنك ما يليق بكرمك. إلهي وصفت نفسك باللطف والرأفة بي قبل وجود ضعفي أفتمنعني منها بعد وجود ضعفي..."[1]

وللمناجاة ألوان في طلب المغفرة واعترافا بالعجز والحاجة إلى فيض رحمته وعظيم ثوابه منها:

و-**الدعاء:**

وهي الكلمات والجمل والدعوات التي يدعو بها العبد ربه طالبا رضاه والقرب منه. وتمتاز بمثانة الأسلوب وقوة الألفاظ ورصانة المعاني، نذكر ما ذكر عن أدعية النبي –صلى الله عليه سلم- منها:" اللهم اجعل في قلبي نورا، وفي بصري نورا، وفي سمعي نوار. وفي لساني نوار، اللهم اشرح لي صدري ويسر أمري، اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت. أعوذ بك من شر ما صنعت اغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت".[2]

وهناك للدعاء ألوان منها:

ي-الاستعاذة:

وهي أدعية تبتدئ بكلمة (أعوذ) ومنها قول المصطفى -صلى الله عليه وسلم-:" اللهم إني أعوذ بك من الكفر والدين والفقر، وأعوذ بك من عذاب جهنم وأعوذ بك من فتنة الدجال". " اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك ومن تحول عافيتك ومن فجأة نقمتك. ومن جميع سخطك".[3]

ر_ الاستغفار:

وهي تبتدأ (أستغفر الله) منها أدعية زين العابدين بن الحسين عليهما السلام منها:" اللهم بك قلبي ولساني. وبك نجائي وأماني وأنت العالم بسري وأعلاني. فأمت قلبي عن البغضاء. وأصمت لساني عن الفحشاء. وأخلص سريرتي وعلانيتي من علائق الأهواء. واكفني بأمانك عواقب الضراء وأجعل سري معقودا على مراقبتك وإعلاني موافقًا لطاعتك. وهب لي جسمًا روحانيًا وقلبا سماويا وهمة متصلة بك. ويقينًا صادقًا في حبكّ.[4]

ز_- التسبيح:

---

[1]- نفسه، ص 138-139.

[2]- البخاري ج3، ص 67

[3]- الغزالي أبو حامد، إحياء علوم الدين، دار بن حزم القاهرة، 1963،د ط، ص 331.

[4]- ابن خلكان وفيات الأعيان وأنباء الزمان، دار صادر بيروت، ج1، 1972، ص 578.

تبدأ عادة بلفظ يدل على التسبيح والتنزيه يقول السهروردي في دعاء له: "سبحانك ما عبدناك حق عبادتك يا من لا يشغله سمع عن سمع ،سبحانك إنك أنت المتجلي بنورك لعبادك في أطباق السموات".

خصائص النثر الصوفي:

- قوة العاطفة وصدقها اتجاه الحب الإلهي
- الإيمان المطلق بالله وبالإنسان الذي استعز بعزة الله.
- بلاغة وروعة وجلالة النثر الصوفي وسحره وشدة تأثره على النفوس بما اشتمل عليه من حكمة وصدق وحب وجمال.
- سمة وضوح أساليبه وجمال ألفاظه وسهولة التراكيب.
- الإطناب في الغالب لبعض المتصوفين منهم الغزالي.
- الاعتماد على الرمز الذي يكثر فيه الإشارات والتلويح.
- الإفراط في الكنايات والاستعارات والسجع والطباق بصفة خاصة.